الفصل الثانى

الزعامات السياسيـة المصرية

« نمـاذج من التـاريخ السياسى للمجتمع المصرى »

تمهيـــــــد :

المبحث الأول :

الزعامات السياسية فى مصر : البشائر وارهاصات الانبثاق ٠

المبحث الثـانى :

أحمد عرابى : كنموذج للصفوة العسكرية الوطنية ٠

المبحث الثـالث :

مصطفى كامل : بـــين العشق الرومانسى لمصر ومقومات الصـــفوة السياسية المثقفـة ٠

المبحث الـرابع :

سعد زغلول : موهبة جسدتها ظروف المجتمع ٠

المبحث الخامس :

الزعامات السياسية المصرية : مظاهر التماثل ومؤشرات التمايز ٠

تمهيـــــد

قد يواجه الراصد لحركة الزعامة السياسية فى مصر ، والمؤرخ لهـــا عددا من العقبات ، وقد تتضاعف هذه العقبات كما وتتعاقد كيفا اذا ما كان المعنى بالرصد ليس مؤرخا تقليديا ممن ينتمون الى زمرة المؤرخين المتخصصين فى علم التاريخ ، ولكنه ممن يتخـــذون من التاريخ منهجـــا ومن المعطيات التاريخية أساسا للتحليل وقاعدة للفهم وهو ما يميز المتخصصين فى عـــلم الاجتماع السياسى ، ويمكن تحديد طبيعة **هذه العقبات فيما يلى :**

١ ـ البعـد الزمنى الذى نبحث من خـــلاله عن الزعامات السياسية المصرية بمعنى من أين نبـــدأ ؟ وما هى نقطة البـــدء بالنسبة لدراستنا ؟ لا سيما وأن تاريخنا المصرى يتميز بامتداد رقعته الزمنية ، الأمر الذى يخلق بالنسبة لنا (مشكلة انتقاء) لنقطة البـــدء ، وحتى وان تمّ هذا الانتقاء ، فما هى مبرراته ؟ .

٢ ـ وتتمثل العقبـــة الثانية فى تحديد معنى الزعامات السياسية وتعيين ماهيتها ، بمعنى أن تاريخنا المصرى بوقائعه واحداثه وشخصياته المتعددة ذات الصلة بهذه الوقائع والاحداث لا يمكن أن تدخل كلهـا فى زمرة الزعماء السياسيين بسماتهم وخصائصهم التى تميزهم عن غـيرهم كقـادة الرأى والفكر مثـــلا ؟ .

٣ ـ وتتمثل العقبـــة الثالثة فى تلك التناقضات التى يمكن الكشف عنها من خلال المعالجات المختلفة للزعامات السياسية المصرية من قبل الباحثين والمؤرخين ، وهى التناقضات التى تشير الى الأبعاد الذاتية والايديولوجيـة لـــكل باحث ومؤرخ ، الأمر الذى يثـــار معـــه تساؤل أســاسى هو : **أين الحقيقـــة اذن ؟** .

٤ ـ وتشير العقبة الرابعة الى طبيعة (رؤية) التناول و (منهج) المعالجة ، لا سيما ونحن لسنا مؤرخين بالمعنى التلقيدى ، بل نحن باحثون فى علم الاجتماع السياسى نتناول الظواهر السياسية فى علاقتها بالسياق

الاجتماعى وبالمتغيرات الثقافية والاقتصادية ، فضلا عن الظروف السياسية التى نشأت فى ظلها هذه الظواهر ونمت ؟ فكيف اذن نتميز عن المؤرخ بصورته الكلاسيكية ؟ ٠

ولتجاوز العقبات الأربع السابقة يمكننا تحديد مجموعة من (الالتزامات) النظرية والمنهجية والتاريخية والتى تصيغ الاطار العام للفصل الثانى من هذا المؤلف ، وهذه **الالتزامات هى :**

١ ـ يتحدد الاطار الزمنى العام لهذا الفصل من خلال العصرين الحديث والمعاصر للمجتمع المصرى على اعتبار أن هذين العصرين من أكثر عصور هذا المجتمع تشبعا بالزعماء السياسيين بالتصور الذى يطرحه هذا المؤلف وهى الفترة التى بدأت منذ تولية محمد على عرش مصر عام ١٨٠٥ حتى اللحظة الراهنة ٠

٢ ـ ان هذا العرض لن يتجاهل فترة ما قبل العصر الحديث ، بل سوف نعنى ـ بوجه عام ـ بملامح الزعامة السياسية المصرية وارهاصاتها قبل هذا العصر وحتى نصل الى بشائر نضجها بدءا بالحملة الفرنسية وتولى محمد على ٠

٣ ـ ثم يمتد البعد الزمنى فيميز بين حقبتين ، حقبة ما قبل دستور عام ١٩٢٣ وهى التى تجلت فيها زعامات أحمد عرابى ومصطفى كامل ، وحقبة ما بعد عام ١٩٢٣ ، والتى بدأت حقيقة بثورة ١٩١٩ والتى تألقت فيها زعامة سعد زغلول ومن جاء بعده كمصطفى النحاس وان كان الأخير لن يدخل فى دائرة تحليلنا ٠

٤ ـ يكشف هذا الفصل عن تصور خاص للزعامة السياسية والذى يتحدد فى (هؤلاء الأفراد أصحاب النزعات القيادية والملكات أو المواهب الزعامية الذين قادوا الجماهير فى لحظات أزماتها سواء ضد المستعمر الاجنبى أو ضد الحاكم ذى النزعة التسلطية ، وهم فى ذلك يختلفون عن قادة الفكر والرأى من جهة وعن الحكام التقليديين من جهة أخرى ، وان كان هذا لا يمنع من أن تكون هناك (حالات) جمعت فيها (بعض) هذه الزعامات بين الزعامة السياسية الجماهيرية وتولى مقاليد السلطة الرسمية ٠ مع ملاحظة أن الزعامة السياسية بصورتها المتكاملة ، هى تلك الزعامة صاحبة الرؤية

أو الأيديولوجية الخاصة ، والتى بدونها تفتقد الزعامة أهم عناصر التكامل فيهـا) ٠

٥ ـ تتحدد الرؤية النظرية الاختبارية لهذا الفصل فى محاولة الاجابة عن مجموعة التساؤلات التى استقيناها من التراث النظرى الخاص بظاهـرة الزعامة السياسية وارتباطها بعدد من المفهومات والقضايا ، كمفاهيم القوة وصيغة الحكم والثورة والصفوة ٠٠ الخ ٠

٦ ـ يسعى هـذا الفصل الى تحديد الملامح الايديولوجية العـامة للنماذج الثلاث للزعامة (أحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول) وكيف انعكست هـذه الملامح على نمط الزعامة وأسلوب القيادة الذى انتهجه كل زعـيم ؟ ٠

٧ ـ ثم كيف كانت هـذه الزعامات (كظواهر سياسية) انعكاسا للظروف الموضوعية للمجتمع المصرى فى حقبه التاريخية المختلفة ؟ ٠

٨ ـ يحاول هذا الفصل أن يكشف عن مظاهر التماثل بين الزعامات السياسية المصرية ومؤشرات الاختلاف **او التمايز** ٠

٩ ـ يعتمد هذا الفصل فى تحليل الزعامات السياسية المصرية على أسلوبى العـزو أورد الشىء الى أصوله mputation واقتفاء **الأثر** Trace وهمـا الأسلوبان المستقيان من مناهج البحث فى علم اجتمـاع المعـرفة Sociology of Knowledge

المبحث الأول

الزعامات السياسية المصرية : البشائر وارهاصات الانبثاق

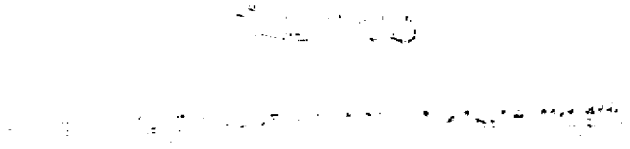

(١)

ارتبطت [الزعامة] فى مصر ـ عـبر تاريخها الطويـل ـ بالمواقف والأزمات والتى كشفت فى بعض مظاهرها عن مضمون اقتصادى وان ظهرت الأسباب السياسية بـين حين وآخر ، ولقـد استمرت الزعامة المصرية فى ارتباطها (بالموقف) و (الأزمة) حتى العصر الحديث والمعاصر ٠

ولـكن من المؤكد أن مصر لم تشـهد الزعامـة السـياسية بمضمونها الأصيل وبملامحها المتفق عليها الا منذ الحملة الفرنسية على مصر ، وان كانت هـذا لا ينفى أن عصور ما قبل هـذه الحقبـة قد شهدت قيادات ـ وليست زعامات سياسية ـ وخاصة قيادات الطوائف الحـرفية والطـرق الصـوفية المنتشرة فى احياء القاهرة القديمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كحى الحسينية وكحى العطوف وباب زويلة ، وباب الشعرية ٠٠ الخ ٠

ولقد ارتبطت (الحركات الشعبية) بهذه الاحياء وطوائفها ورؤساء هذه الطوائف ولا سيما طائفة (الجزارين) الذين تزعموا ـ أو على وجه الدقة ـ قادوا العديد من الحركات الشعبية ضد ظلم الحكام ، ويكفى ان نذكر فى ذلك (الشيخ أحمد سالم الجزار) الذى « ظهـر نفوذه الكبير على حى الحسينية أثناء الأزمات التى شارك هـذا الشيخ فيهـا ٠ ويمكن الافتراض كذلك أن الخلوتية (التى ظهر بينها على البيومى) قد لعبت دورا فى الحياة الروحيـة للحى ، فالسيد على بن موسى ، وهو شخصية ذات نفوذ (ومدرس بالمشهد الحسينى) ـ كان أيضا واحدا من شخصيات الحسينية المرموقين ، وبعـد موته اصبح أخوه « بـدر الدين » زعيما للحى وهو الذى قاد حـركة عام ١٧٨٩ »(١) ٠

ويـذهب أندريه ريمون مؤكدا ارتباط الزعامة أو القيـادة الشعبية برؤساء الطوائف والمهن ويشير ـ خلاف ما سبق ـ الى الدور الذى لعبـه

---

(١) أندريه ريمون ، فصـول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهـير الشايب ، مؤسسة روزاليوسف ، يوليو ١٩٧٤ ، ص ٢٧٧ ٠

بصفة خاصة الجزارون الذين يصفهم بأنهم « .... قوم متينو البنية ، حادو الطباع ، تربطهم تقاليد طائفية قوية »(١) . ولقد كانت طائفة الجزارين - حسبما يشير أندريه ريمون - هى النواة التى تتجمع حولها حركات التمرد ، ويذكر من زعماء هذه الطائفة الى جانب أحمد سالم الجزار ، شيخ الجزارين ابن شمعة زلذى يعتبر أحد الزعماء الشعبيين خلال أحداث ١٨٠٥ التى لعبت فيها الحسينية دورا حاسما(٢) .

(٢)

واذا كانت الزعامات الشعبية قد ارتبطت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر برؤساء الطوائف وأرباب المهن ، وهى الزعامات التى تكشفت قوتها من خلال الأزمات الاقتصادية وظلم الحكام ، فكانت بعض (الهبّات)(٣) الشعبية التى تزعمها رؤساء الطوائف الذين كانوا يمثلون نوعية خاصة من الصفوات The Elites الشعبية الذين يستمدون قوتهم من طبيعة الوضعية الرئاسية للطوائف والمهن ، وهو ما يكشف عن الدور العظيم الذى كانت تقوم به هذه الطوائف والمهن ، فضلا عن رؤساء الفرق الدينية الذين اضطلعوا بأدوار سياسية فى وقت المحن والأزمات التى كان يتعرض لها الشعب .

ويخبرنا أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى ما يكشف عن دور الصفوات المتميزة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى الوقوف بجانب الشعب لدرء الظلم ومقاومة الحكام وظلم السلطات الحاكمة ، فينبئنا عن الحاج ناصف الذى يلجأ اليه أهل البتانون (احدى قرى مركز شبين الكوم - المنوفية) عند ما يشتد بهم الكرب ، والذى يصفه أحمد شلبى بن عبد الغنى بأنه كان « ... مرهم البلد .. كريم اللحية ، طعام عيش لا يحب فسادا ،

---

(١) اندريه ريمون ، نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(٢) انظر : اندريه ريمون ، نفس المرجع ، ص ٢٧٦ .

(٣) من المؤكد أن هذه الهبّات لم تكن الاولى من نوعها فى تاريخ المجتمع المصرى . بل ان تاريخ مصر الفرعونية ينبئنا بان اول ثورة على الاقطاع قد حدثت فى مصر قرابة انتهاء الاسرة السادسة (بين عامى ٢٢٨٠ ق.م - ٢٢٣٤ ق.م) [انظر محمد العزب موسى ، أول ثورة على الاقطاع] . وانظر سيد حامد النساج ، مصر وظاهرة الثورة : دراسة فى تاريخ الثورات المصرية ، دار النهضة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

فتلقى جميع أمور البلد بصـــدره ، وأن مضيفته للشارد والوارد من أهـــل الرايتين ، وأنه عين البلد »(١) ٠

(٣)

ويبدو أن الظلم كافراز طبيعى لنمط الحكم الذى ساد مصر أيام حكم المماليك ومن جاء بعدهم من الاتراك العثمانيين قد ساعد كثيرا على خـــلق مواقف الاحتجاج التى كان يتزعمها بعض الأفراد المتميزين فى المجتمع ، ولولا هـــذه المواقف ـ فيما يبدو ـ ما كان لهـــذه الشخصيات أن تظهر كقيادات جماهيرية ، وان ظلت كشخصيات متميزة فى المجتمع ٠

وتأكيدا لسمة الظلم التى ســادت مصر المملوكية والعثمانية تـــلك الأحداث التى ذكرها ابن اياس عن أحد أيام شهر ذى القعدة عام ثمانوسبعون وثمانمائة (١٤٧٣ / ١٤٧٤ م) حيث يقول « وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا الى جهة بولاق فنهبوا ما فيها٠ثم قصدوا شونة الأمير يشبك الدوادار فنهبوا ما فيهـــا ، وصاروا يأخذون جمـــال السقايين ، ويحملونها ما نهبوا من الشعير ٠٠ وحصل منهم فى ذلك اليوم غاية الضرر للناس من نهب وخطب بضائع الناس وغير ذلك ٠٠»(٢) ٠

ولاشك أن الاحتجاج أو التمرد أو العصيان ظواهر تترتب بطبيعـــة الحال على ما تفرزه مظاهر الظلم والديكتاتورية المرتبطة بنوعيات خاصـــة من أسالبب الحكم ونظمه ، وهنـــا تجد الزعامات السياسية أو القيـــادات الجماهيرية أرضا خصبة للتخلق والنمو ٠

وزعامات هذا العصر لا يمكن أن ننظر اليها ، أو ينهض تقويمنا لهـــا على أساس مقاييس عصرنا الراهن ، ولكنها زعامات على أية حال بظروف عصرها ، وبمنطق الوضعية السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك٠ ويتأكد هذا الدور الزعامى لبعض شخصيات القرن الثامنعشر والتاسع عشر فيما رواه

---

(١) احمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى ، أوضح الاشـــارات فيمن تولى مصر للقاهرة من للوزراء والباشـــاوات الملقب بالتاريخ العينى ، تقـــديم وتحقيـــق وضبط وتصحيح عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤١٦ ٠

(٢) محمد بن أحمد بن اياس الحنفى المصرى ، من بدائع الزهور فى وقائع الدهـــور ، كتاب الشعب (٩٦) ، مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٤٩ ٠

عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى الشهير ، عن ذلك الدور المتميز الـــذى لعبه علماء الازهر ومشايخه(١) ، وهو دور يكشف عن نوعية خاصـــة من الزعامات وهى الزعامات الدينية التى كانت تمثل صفوة متميزة فى حينهـا ، كما يكشف أيضا عن الدور العظيم الذى لعبه الازهر بعلمائه ومشايخه الذين اعتبروا العمل فى الحياة العـــامة صورة من صور الجهاد ، فكان التحامهم بالشعب ودفاعهم عن قضاياه والوقوف بجانبه أمام صلف السلطات الحاكمة وقيادة حركات تزمره ، وتمثيله أمام الحكام والولاة ، نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ العروسى ، والشيخ الأمير ... الخ ، ومما رواه عبد الرحمن الجبرتى ويؤكد الدور القيادى للصـــفوة الدينيـــة ، أنه فى ذى الحجـــة عـام ١٩٧٥ « وقـــع به مـن الحوادث أن الشـيخ الشرقاوى له حصـــة فى قرية بشرقيـة بلبيس ، حضر اليه أهلها ، وشكوا من محمد بـك الالفى ، وذكروا أن أتباعه حضروا اليهم وظلموهم ، وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ ، وحصر الى الازهر ، وجميع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وذلك بعـــدما خاطب مراد بك ، وابراهيم بك ، فلم يبديا شيئا .. ففعل ذلك فى ثانى يوم، وقفلوا الجامع ، وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت . ثم ركبوا فى ثانى يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم ، وذهبوا الى بيت الشيخ السادات ، وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة ، بحيث يراهم ابراهيم بك ، وقد بلغه اجتماعهم ، فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر اليهم ، وسلم عليهم ، ووقف بين يديهم ، وسألهم عن مرادهم فقالوا له : « نريد العدل ورفع الظلم والجور ، واقامة الشرع ، وابطـــال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » فقال « لا يمكن الاجابة الى هـذا كله ، فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات » فقيل له « هـــذا ليس بعـذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقـــات

---

(١) انظر دراسة هامة عن دور الازهر وعلمائه فى الكفاح فى : عبـد العـــزيز محمـــد الشناوى ، صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧١ .

كذلك انظر : عبد الرحمن الرافعى ، مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية ، مركز النيـــل للاعلام ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

وشراء المماليك والأمير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ » فقال : « حتى أبلغ » . ويستطرد الجبرتى فيقول : « وفى اليوم الثـــالث حضر الباشـــا الى منزل ابراهيم بك واجتمع الافراد هنـــاك وأرسلوا الى المشايخ فحضر الشـــيخ السادات والســـيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير .. ودار الكلام بينهم وطال الحـديث ، وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا **والتزموا بمـــا شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح على أن يدفعوا** سبعمائة وخمسين كيسا موزعة ، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ، ويصرفوا غـــلال الشون وأموال الرزق ، ويبطلوا رفع المظالم المحدثة ، والكشوفيات والتفاريد والمكوس ... وكان القاضى حاضرا بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك ، وفرمن عليها الباشا ، وختم عليها ابراهيم بك ، وأرسلها الى مراد بك فختم عليها أيضا ، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ ، وحول كل واحـــد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العـــامة وهم ينادون : (حسب **ما رسم سادتنا العلماء** : بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصريـــة)(١) .

(٤)

وثمة مجموعة من الحقائق يمكن استخلاصها من النص السابق وهى :

(أ) ان علاقة الشعب بالسلطة الحاكمة سواء المملوكية أو العثمانيـــة كانت علاقة يسودها التوتر والظلم .

(ب) لم يستسلم الشعب المصرى للظلم وعادة ما كان يعبر عن عـــدم رضاه هذا بما يشبه التذمر والاحتجاج الذى يأخذ أحيانا شكل العنف .

(جـ) كان الجامع الأزهر هو ملتقى العامة من الشعب لتـــدبير أمورهم لمواجهـــة ظلم السلطات الحاكمة ، وكان ملاذهم الوحيـــد لدرء الخطر عنهم مستعينين فى ذلك بعلمائه ومشايخه الذين لعبوا دورا جماهيريا عظيمـــا فى الكفاح الوطنى وفى مساندة الحركات الشعبية رغم انتكاسة هذا الموقف بعـــد حكم محمد على .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المختار من تاريخ الجبرتى : عجـــائب الآثار فى التراجم والاخبار ، كتاب الشعب (٢٩) ، اختيار محمد قنديل البقلى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٣٦ .

(د) ان نظرة السلطات الحاكمة الى علماء الأزهر ومشايخه ـ فى تلك الآونة ـ كانت تتسم بالاجلال والاحترام · ولعل هذا ما يؤكد أن الزعامات الدينية فى الحقب المشار اليها لم تكن زعامات دينية خالصة ، بـل امتزجت النزعة الدينية بالرؤية السياسية الدنيوية ، فكان لهم هذا الدور القيادى فى تزعم حركات الجماهير ، وفى قيادة الثورات وهو ما تجلى فى مقاومة الحمـلة الفرنسية والدفاع عن مدينة القاهرة ، وقيادة ثورتى القاهرة الأولى والثانية·

ولاشك أن نابليون قد أدرك القيمة الحقيقية للصفوة الدينية أو للزعماء الدينيين ومدى قدرتهم على قيـــادة الجماهير وتحريكهم ، ويتضح ذلك من موقفين : الموقف الأول حين دخل الفرنسيون القاهرة ، فكان أول عمل قاموا به ظنـــا منهم أنه يحقق لهم استسلام الشعب القاهرى ، **هو القبض على الزعماء الدينيين** ، أما الموقف الثانى فيتضح عندما أدرك نابليون أن مركزه محفوف بالمخاطر ، وصار يتودد الى المصريين **ويسترضى العلماء** باعتبارهم (مفتاح) كسب ود الجماهير والطريق الطبيعى لاستمالتهم(١) ·

(٥)

ومن ملامح الدور القيادى لعلماء الأزهر ومشايخه ما كشفت عنه ثورة القاهرة الأولى والثانية ، فثورة القاهرة الاولى ، كانت ثورة وطنية خالصة ـ على نحو ما يذهب لويس عوض ـ قامت احتجاجا على نظـــام الضرائب ورسوم التسجيل الذى وضعه الفرنسيون · ولقد تزعم هذه الحركة كوكبة من علماء الأزهر كالشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفـة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يـوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى(٢) ·

واذا كان لويس عوض يرى أن قيادة ثورة القاهرة الثانية ضدالفرنسيين كانت بيد الاتراك والمماليك ، الا أن الجبرتى قد أشار الى الدور البطولى الذى قام به السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى فى قيادة هذه الثورة ، حيث انضم اليهم عدد كبير من أهالى البلد ، ولكن نظرا لمـا ســاد

---

(١) انظر : محمد أمين حسونه ، كفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر ، المجلد الاول : الوعى القومى ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ص ٢٤ ـ ٢٥ ·

(٢) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث : الفكر السياسى والاجتماعى ، كتاب الهـلال ، العـدد ٢١٧ ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ٧٠ ·

البلاد من فوضى ، ونظرا لتحول الثورة عن مسـارها الطبيعى وتحولها الى مسرح للمذابح الدينية اتخذ العلماء موقفا وسطا لتهدئة الموقف وهو الأمر الذى جعل لويس عوض يرى أن القيادات الدينية أثناء هذه الثورة لم تلعب دورا حاسما حيث تسلم قيادتها أعوان الباب العالى وأصدقاؤه وعملاؤه وهم الذين لم يجدوا سندا يستثيرون به الغوغاء والحرافيش « ... الا اثارة النعرة الدينية وارهاب البسطاء للجهاد فى سبيل الدين واتهـام الزعماء المصريين بالخيانة والارتشاء من الفرنسيين وما هؤلاء الزعماء الا أمثال الشيخ الشرقاوى الذى تحدى بونابرت وجها لوجه وألقى بطيلسانه المثلث الألوان على الأرض ، والشيخ المهدى الذى كان بونابرت يقول عنه وعن زميله الشيخ الصـاوى أنهما ليسا (بونو) بلغـة الجبرتى ، وعامة أعضـاء مجلس الوزراء الذين اعتقلوا واحدا واحدا فى فترات مختلفة بسبب مواقفهم الوطنية »(١) .

ولا شك أن زعامة السيد عمر مكرم تستحق وقفة وتأمل(٢) ، فهو من أبرز صفوات المجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وهو من أكثر زعامات هذه الحقبة قربا من الجماهير ودنوا من نبض رجل الشارع ، فكان بحق من أبرز الصفوات الدينية المستنيرة ، التى جمعت بين الادراك والوعى ، ادراكه لقضايا الانسان المصرى ومشكلاته ، لا سـيما مواقفه مع السلطة الحاكمة ، ثم وعيه بضرورة الدور الذى ينبغى أن يضطلع به وزملاؤه بالنسبة لقضايا الانسان المصرى بحيث ألا ينحصر هذا الدور فى ذلك المفهوم الضيق لمعنى الدين أو لمفهوم رجل الدين .

ولعل اشاراتنا السابقة لوضعية السيد عمر مكرم فى ثورتى القـاهرة

---

(١) لويس عوض ، نفس المرجع ، ص ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) انظر دراسة هامة عن عمر مكرم فى : عبد العزيز الشناوى ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، (أعلام العرب) ـ ٦٧ ـ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، يوليو ١٩٦٧ وانظر أيضا نعمان عاشور ، بطولات مصرية من عمر مكرم الى بيرم التونسى ١٧٥٠ ـ ١٩٦١ ، روزاليوسف ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٧٣ .

وانظر أيضا جاد طه ، موقف الجبرتى من ثورات القاهرة ، فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتى : ١٦ ـ ٢٣ ابريل ١٩٧٤ ، ص ص ٣٢٥ ـ ٣٤٠ .

وكذلك : صـلاح العقـاد ، الجبرتى والفرنسيس ، فى نفس المرجـع السـابق ، ص ص ٣٠٩ ـ ٣٢٤ .

وانظر : عبد الرحمن الرافعى ، مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية ، ص ص ٣٢٧ ـ ٣٤٠ .

الاولى والثانية ما يكشف عن هذا الدور الزعامى الذى لعبه النقيب · ويتعاظم هذا الدور من خلال مجموعة الاحداث والوقائع التى سبقت تولية محمد على على مصر ، وابعد توليته أيضا ، فيقول الجبرتى عن أحداث يومى ١٢ ، ١٣ مايو ١٨٠٥ : « وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسله الى القاضى يرفق فيها الجواب ، ويظهر الامتثال ويطلب حضوره اليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة · فلما وصلته التذكرة ، حضر بها الى السيد عمر أفندى ، واستشاروا فى الذهاب ، ثم اتفقوا على عدم التوجه اليه وغلب على ظنهم أنها منه خديعة، وفى عزمه شىء آخر ، لأنه حضر بعد ذلك من أخبرهم أنه كان أعد أشخاصا لاغتيالهم فى الطريق ، وينسب ذلك الفعل لأوباش العسكر ··· أن لو عوتب بعد ذلك ·

اجتمعوا ببيت القاضى ، وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعوهم من الدخول الى بيت القاضى ، وقفلوا بابيه · وحضر اليهم أيضا سعيد أغا والجماعة ، وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له (انا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولا بد من عزله من الولاية) فقال : (ومن تريدونه يكون واليا ؟) فقالوا له (لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير) فامتنع أولا ! ثم رضى · وأحضروا كركا وعليه قفطان ، وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فالبساه له ··· وذلك فى وقت العصر ونادوا فى تلك الليلة فى المدينة ··· »(١) ·

ويشير النص السابق الى مجموعة من الحقائق ، لعل من أبرزها التأكيد على الدور الزعامى لمشايخ الأزهر وقيادتهم لحركة الجماهير ··· ومن الحقائق أيضا أن كلا من السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى قد أنابهما الشعب فى التحدث باسمه ، وفى اختيار محمد على واضفاء صفة الشرعية على توليته بالباسه الكرك والقفطان وهو موقف يتماثل الى حد كبير مع عملية التنويج، الا أنه تتويج شرعى شعبى قام به مندوبو الشعب وممثلوه ·

ومن الحقائق اللافتة فى النص السابق أيضا ، مبايعة الشعب لمحمد على واليا على مصر ، وهى مبايعة مشروطة ، وولاية محكومة بشروط الشعب،

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، المختار من تاريخ الجبرتى ، ص ٦٣٠ ·

وهو ما جعل أحد المستشرقين يذهب الى ما معناه أن هذه الحادثة تعد الأولى من نوعها فى الشرق أجمع وهى أن يختار الشعب واليه بارادته . ولا شك أن هذا الموقف يكشف عن درجة عالية من الوعى أو النضج السياسى اذا قيس بظروف العصر ٠

(٦)

وتتجسد زعامة السيد عمر مكرم فى اصراره ـ كتعبير عن مطلب شعبى ـ على عزل الوالى التركى وتنصيب محمد على ، نظرا لأن الأول قد عاند وكابر ورفض التنازل ، ورفض أن ينزله (الفلاحون) على حد تعبيره ٠ ويقص لنا الجبرتى بعض المواقف التى تؤكد زعامة السيد النقيب واصراره على تحقيق أمل من الآمال الوطنية فى حينها ٠ فيقول الجبرتى عن أحداث ٢٢ مايو ١٨٠٥ « ركب السيد عمر أفندى والمشايخ ، ومعهم جمع كثير من الناس الى الأزبكية وبعد ركوبهم حضر الجمع الكثير من العامة والعصب وطوائف الاجناد والوجاقلية ، وعصب النواحى ، وأهل الحسينية ، والعطوف ، والقرافة ، والرميلة ، والحطابة ، والصليبة وجميع الجهات ـ ومعهم الطبول والبيارق ـ حتى غصت بهم الازقة ، فحضروا الى جهات الجامع الازهر ، ثم رجعوا الى الازبكية ولقوا بالمشايخ ٠ « ثم يقول الجبرتى عن أحداث يوم ٢٥ مايو ١٨٠٥ وفى ذلك اليوم ركب السيد عمر أفندى فى قلة من الناس وذهب الى بيت حسن بيك أخى طاهر بيك ٠ وكان هناك عمر بيك الذى نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة فى الكلام طويلة ٠ ومن جملة ما قال : (كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ٠٠ وقد قال تعالى (أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول، وأولى الامر منكم) ؟ فقال له : (أولوا الأمر العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ٠٠٠ وهذا رجل ظالم ٠ وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ٠٠ وهذا شىء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلون ويخلعون »(١) ٠

تلك هى زعامة الشعب كما تجلت فى السيد عمر مكرم وزملائه من العلماء والمشايخ ، وهذا هو الدور الحقيقى للصفوة الدينية كما ينبغى أن يكون ،

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ص ٦٣٠ ـ ٦٣١ ٠

وهو الدور الذى استشعر محمد على خطورته ، فنكل بالسيد عمر وحدد اقامته ثم نفاه الى دمياط رغم افضال الشيخ عليه ، فكان عهد محمد على ، هو العهد الذى تقلص فيه الدور الزعامى لرجال الدين ، وكان هذا يتسق و « ... خطة محمد على وقد استولى على الحكم أن يبعد الشعب ابعادا تاما عن الاشتراك فى توجيه السياسة العامة لبلاده والاستئثار من دون العلماء وغيرهم من ممثليه بالسلطة المطلقة »(١) .

وأيا كانت ظروف الصراع الذى نشب بين السيد عمر مكرم ومحمد على وعن دور بعض المشايخ فى تعميق الهوه بينهما وخيانة بعضهم للنقيب فانه من المؤكد أن النزعة التسلطية فى الحكم التى انتهجها محمد على كأسلوب أو كصيغة لتسييس امور الدولة(٢) تتسق وموقفه من الزعماء الشعبيين والدينيين ، حيث كانوا أحد العقبات الهامة التى اعتقد أنها قد تحول بينه وبين الاستئثار بالحكم ، ويؤكد هذا ما ذهب اليه الشناوى من أن « احتفاظ عمر مكرم بزعامته الشعبية فى ظل الحكم الاستبدادى الذى مارسه محمد على فكان أمرا مشكوكا فيه ، لأن اقصاء هذه الزعامة عن الميدان السياسى كان هدفا سياسيا سعى اليه محمد على وضرورة سياسية فى نظره لتنفيذ المخطط السياسى الذى وضعه لنفسه ولأسرته منذ عام ١٨٠٧ »(٣) .

(٧)

يؤكد العرض السابق لارهاصات الزعامة السياسية المصرية مجموعة من الحقائق نوجزها فيما يلى :

١ ـ لم تشهد مصر زعامة سياسية حقيقية الا على يد عمر مكرم وان كان الأخير قد استمد زعامته من وضعه كعالم ونقيب للأشراف وأحد أعلام المجتمع المبرزين .

---

(١) نعمان عاشور ، مطولات مصرية ، ص ٢٢ .
وانظر : احمد حاتم ، الجبرتى ،محمد على ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الجبرتى ، ص ص ٣٧٣ ـ ٣٩٦ .

(٢) انظر : عاطف أحمد نؤاد ، السلطة والطبقات الاجتماعية فى مصر ، دراسة اجتماعية ,تاريخية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، مودعة بمكتبة كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٥ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، عمر مكرم ، بطل المقاومة الشعبية ، ص ٢٥٠ .

٢ ـ عرفت مصر الزعامات الشعبية ، وهى الزعامات التى تألق فيها رؤساء الطوائف والحرف المختلفة ، وهذا يكشف عن أن دور الطائفة أو الحرفة كان يتجاوز حدود طائفته أو حرفته الى الاهتمام بالقضايا العامة للشعب والمشاركة فى الدفاع عن مصالحه ودرء الخطر عنه ، والشاهد على ذلك رؤساء طائفة الجزارة بحى الحسينية ٠

٣ ـ لم تكن الزعامات الدينية تقنع بالدور التقليدى لرجل الدين ، بل آثروا الالتحام مع الشعب ، فكانوا سندا له عند كل موقف ، وكل خطب ، ودليلنا على ذلك تلك المواقف المشرفة التى وقفها الشيخ الشرقاوى والبكرى والسادات والأمير والعطار ، فضلا عن عمر مكرم بطبيعة الحال ٠

٤ ـ كشف العرض السابق عن أن الزعامات الشعبية القيادية قد تركزت فى الصفوات ، سواء أكانت صفوات مهنية حرفية أو صفوات دينية ٠ ولعل هذا يؤكد ما أشرنا اليه فى الفصل الأول وما أشاره التراث الفكرى والنظرى لظاهرة الزعامة السياسية من أن الزعامة ما هى الا صفوة متميزة فى المجتمع ، أيا كان المصدر الذى تستقى منه هذه الصفوة مقوماتها ٠

٥ ـ لم تتألق هذه الصفوات ولم تأخذ أبعادها القيادية أو الزعامية الا من خلال المواقف والأزمات ، فكأن الموقف أو الأزمة بمثابة التجسيد الحى لتلك الزعامات وبلورة لأبعادها ، وكشف عن كوامنها ٠

٦ ـ لم نلحظ من العرض السابق أى تأثير للقوى الاقتصادية فى صياغة الزعامات الشعبية أو الاسهام فى تعيين ملامحها ٠

٧ ـ من العسير فهم الزعامات السياسية بمعزل عن السياق الاجتماعى للمجتمع الذى نشأت فيه ، وتأكيدا لهذا ، فارهاصات الزعامة السياسية المصرية ، قد خلقتها التناقضات الطبقية التى سادت المجتمع المصرى ، فضلا عن نمط الحكم السائد التى جمعت بين مقولتى الظلم والاستبداد ٠ ولكن من المؤسف أنه فى الوقت الذى ساعد هذا النمط السلطوى على خلق الزعامات، كان العامل الرئيسى فى أفول نجمها كما هو الحال مثلا من موقف محمد على من السيد عمر مكرم ٠

٧ ـ وتؤكد النتيجة السابقة أن الزعامات السياسية الشعبية كانت دائما مصدر قلق وتوتر للسلطة الحاكمة ، وكانت هذه السلطة تنظر اليها

دائمـا باعتبارها ظـواهى غير سـوية فى المجتمع ، وقد تتخذ السلطة ازاءها واحدا من موقفين اما محاولة الاستقطاب سعيا وراء كسب مودتهم تحقيقـا لصيغة التوازن فى المجتمع وقضاء على الانشقاقات والتوترات فى المجتمع • واما أن تحاول التنكيل بهم ومحاربتهم وارهابهم لكسر شوكتهم والنيل من قوتهم ، حتى لا يجد الشعب فيهم السند أو المعين •

٨ ـ وفى الوقت الذى كانت تنظر فيه السلطات الحاكمة الى الزعامات السياسية هـذه النظرة نجـد الشعب قد اتخذ موقف الملتحم الذى يرى فى الزعامات ملاذا وحصنا يلوذ به ويتحصن فيه ، كما يجد فيهم القوة التى بدونها قد يعجزوا عن تحقيق أهدافهم •

(٨)

وأخيرا ، اذا كنا قد افترضنا أن ارهاصات الزعامة المصرية لم تـكن زعامة سياسية بالمفهوم المتعارف عليه فى عصرنا الراهن وكما تطرحه بعض مقولات الفكر السياسى والاجتماعى ، الا أننا ـ مع ذلك ـ لا يمكن أن نجرد تلك الزعامات من مقوماتها القيـادية(١) أو قدراتها الزعاميـة ، وذلك اذا ما وضعنا فى الاعتبار ظروف العصر ومتغيرات البناء الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للمجتمع الذى نشأت فيه هذه الزعامات وتخلقت •

---

(١) يذكر عبد الرحمن الرافعى عن كفاءة عمر مكرم الزعامية وجاذبيته الجمـاهيرية ما نصه ان السيد النقيب كان « ... متطورا اليه من الشعب كرئيس تستجاب دعوته وتطاع كلمته وملجأ يأوى اليه المظلومون فيرفع عنهم شر المظالم ويقيهم طغيان الحكام » (عبد الرحمن الرافعى ، مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية) ، ص ٢٤٠ •

المبحث الثاني

أحمد عرابي

كنموذج للصفوة العسكرية الوطنية

(١)

تمثل زعامة أحمد عرابى أحد محاور الخلاف بين مؤرخى حقبة الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وهو ذلك الخلاف الذى تكشف من خلال محاولات رصد وقائع الاحداث العرابية وتقويمها ، وتقويم شخصيته عرابى وشرعية زعامته وحقيقة وطنيته ودرجة نضجه أو وعيه السياسى ، ومدى تعاظم طموحه الشخصى بالمقارنة بكم انجازاته الوطنية والسياسية وكيفها ٠

والملاحظ أن الاختلافات التى تكشفت بين مؤرخى تلك الحقبة وبين راصدى الحركة العرابية ومحللى شخصية صاحب هذه الحركة ، قد عكست لنا اختلافات فى طبيعة (المنهج) المستخدم للتحليل وفى طبيعة (الرؤية) أو الايديولوجية التى حددت هذا المنهج وبالتالى انعكست على كل متتاليات التقويم(*) ٠

---

*ـ انظر مجموعة من الدراسات والبحوث التى أرخت للثورة العرابية وزعامة أحمد عرابى والتى تعكس التباينات فى رؤى المؤرخين فى تقويمهم للثورة وشخصية زعيمها :

ـ عبد الرحمن الرافعى ، الزعيم أحمد عرابى ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٢ ٠

ـ الفريد بلنت ، التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر (خمسة اجزاء) سلسلة احترنا لك ٠

ـ أحمد عرابى المصرى ، مذكرات عرابى ، كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ١٢٩٨ ـ ١٢٩٩ الهجريتين ، وعامى ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ الميلاديتين، العددان ٢٣ ـ ٢٤ من سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٧ ٠

ـ محمود الخفيف ، أحمد عرابى ، الزعيم المفترى عليه ، الجزء الاول ، كتاب الهلال ٠

ـ صلاح عيسى ، الثورة العرابية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ٠

ـ رفعت السعيد ، الواقع الطبقى للثورة العرابية ، مجلة الطليعة ، العدد ٩ ، السنة السابعة ، سبتمبر ١٩٧١ ٠

ـ رفعت السعيد ، الاساس الاجتماعى للثورة العرابية ، مكتبة مدبولى ، فبراير ، ١٩٦١ ٠

ـ عبد العظيم رمضان ، قيادة الثورة وفكرة السلطة ، مجلة الطليعة ، العدد ٩ ، السنة السابعة ـ سبتمبر ١٩٧١ ٠

ـ النصوص الكاملة لمحاضر التحقيقات مع أحمد عرابى ، الطليعة ، العددان ٢ و ٦ فبراير ١٩٦٦ ويونيو ١٩٦٧ ٠

ومنهجنا منذ البداية يستمد أصوله من حتمية العلاقة بين الفكر والواقع وانه من المستحيل فهم ظواهر المجتمع (ومنها الظواهر السياسية والتى يعتبر أحمد عرابى بثوريته وفكره أحد مظاهرها) بمعـــزل عن سياقها التـــاريخى والبنائى ، وهو ما يميزنا نحن الباحثين فى علم الاجتماع السياسى عن غيرنا من المؤرخين التقليديين والراصدين الكلاسيكيين ٠

وبطالعنا عبـــد الرحمن الرافعى بأول تقويم لشخصية عرابى حيث يذهب الى أنه كان بلا منازع ذا شخصية قوية جـــذابة تؤثر فى الأفـراد والجماعات ٠٠ فله من هذه الناحية أخص صفات الزعماء ٠ ولولا هذه الموهبة لمـا استطاع أن يجتذب اليه محبة ضباط الجيش وجمهرة الأمة ، وينال ثقتهم ويملى ارادته عليهم ، وكانت له أيضـــا موهبة الكلام والصوت الجهورى ٠ وهذه أيضا من مزايا الزعماء التى تحببهم الى نفوس الجماهير ٠ وقد كـان لخطبه تأثير السحر فى نفوس سامعيه ٠ وكان بلا مراء يريد الخير لبلاده ، ويريد لهـا الحرية والاستقلال ٠ وعلى هذا الأساس قامت دعوته »(١) ٠

فالصورة كما قدمها الرافعى تجعل من عرابى أحـــد الشخصيات ذات الجاذبية السحرية من حيث قوة التأثير ومزية الصوت الجهورى ، وهى كلها من السمات التى قد تؤهل حقيقة للقيادة ، وهى بعض خصائص القيـــادة الكارزمية كما يذهب ماكس فيبر التى تنهض أولا وأخيرا على مواهب القائد وملكاته الخاصة ٠

ولكن من المؤكد أن الخيط الذى يفصل بين الزعيم أو القائد السياسى وبين (المهيج) السياسى خيط يكاد لا يرى ، فالصورة كما قدمها الرافعى لعرابى تكاد تقترب من صورة المثيرين السياسيين الذين قد يكون لديهـم بعض ملامح القيادة أو الزعامة ، ولا نعتقد أن عرابيا لم يكن محض مهيـج سياسى وان افتقد (بعض) المقومات الزعامة الحقيقية ٠ ولقد آن لنا أن نؤكد أن السمات الكارزمية وحدها لا تخلق زعيما سياسيا حقيقيا بقدر ما تقـدم مهيجا جماهيريا ، لذلك فان ما أشار اليه فيبر Weber فى تصنيفه للقيادات أو للسلطات عن القيادة أو السلطة الكارزمية أو الالهامية قد يصدق تماما ـ

---

(١) عبد الرحمن الرافعى الزعيم احمد عرابى ، كتاب الهلال ، ص ٢١٠ ٠

فيما أتصور ـ على ما نسميه بالمهيج السياسى ، أما الزعيم السياسى فهو نمط آخر يجمع بين الملكات النفسية والعقلية ـ وقد تكون الفيزيقية أيضا ـ من جانب وتميز الرؤية أو الايديولوجية السياسية والفكرية من جانب آخر وهو الأمر الذى نفتقده فيما يسمى بالزعامات الكارزمية أو الالهامية ٠

وتتأكد الصورة الكارزمية لعرابى فيما يعتقد المؤرخون وفيما ذهب اليه صلاح عيسى من أن عرابياً كان يتميز بنوع «٠٠٠ من الرومانتيكية ، غلبت على تصوره العام للأشياء وهى مظهر من مظاهر الوعى لبعض عناصره ٠ وهو ما أجمع عليه كل من عرفه من أصدقائه بلنت ونينيه مثلا ـ ولعل هذا راجع الى حسه الصوفى أساسا ، بيد أن ذلك قد ساهم ـ مع عوامل أخرى ـ فى تردده فى بعض المواقف ، وافتقاره الى العقلية العملية ، التى تتخذ قرارات حاسمة ونهائية عندما يتطلب الأمر ذلك »(١) ٠

ولا شك أن عرابى بنزعاته الالهامية هذه قد نبع من صفوف العسكريين باعتباره أحد الصفوات العسكرية المتميزة ، الا أن روحه كفلاح مصرى قد أضفت عليه قدسية خاصة ونظر اليه الشعب باعتباره منقذ الأمة من غطرسة الحكام وتعالى الجراكسة ٠ ولقد ظلت سماته الكارزمية أحد المحددات الأساسية له كقائد للأمة فى حقبة من أخطر الحقب التى مرت به ٠

ويبدو أن السمات الكارزمية لدى عرابى قد تعاظمت حتى بدا للبعض فى صورة قديس ، وهو احساس لم يقتصر على المصريين فقط ، بل تجاوزه الى الأجانب أيضا ٠ ويروى بلنت واقعة تؤكد هذا حيث يقول أنه شاهد بنفسه عرابى وهو يستقبل وفدا من الجالية الايطالية فاذا بهم ينهالون على يديه تقبيلا ، ويؤكد أن عرابى قد بدى لهم فى صورة قديس يدافع عن الحرية »(٢) ٠

ويصف بلنت عرابى مؤكدا ما ذهب اليه الرافعى فى وصفه لعرابى ، حيث يقول بلنت « ان عرابى نموذج للقائد الفلاحى ٠٠ طويل ٠٠ عريض

---

(١) صلاح عيسى ، الثورة العرابية ، ص ٤٧٤ ٠

(٢) انظر : صلاح عيسى ، ملامح من الخريطة الفكرية للثورة العرابية ، مجلة الطليعة ، العدد التاسع ، السنة الرابعة ، سبتمبر ١٩٧١ ، ص ٤٧ ٠

المنكبين ، بطيىء الحركة نوعا ما ٠٠ يشبه فى مشيته مشايخ البلاد ٠٠ اسمر الوجه الى الحد الذى كان يجعل الاتراك ينفرون منه ٠٠ ذا نظرة غريبة ٠٠ قد تبدو جامدة وقد تبدو حالمة ٠٠ لكنه كان مبتسما على الدوام وما أن يتكلم حتى يكتشف الانسان طيبته وذكاءه ٠٠ لقد كرهه رياض باشا منذ اللحظة الأولى وحتى رجال الاصلاح فى الازهر كانوا يقللون من قيمته كسياسى ٠٠ لكن ما يميز عرابى هو أنه فلاح من طبقة الفلاحين ٠ كان واحدا من هذه الطبقة ٠٠ وليس مجرد قائدا لها ٠ هو قطعة من الفلاحين يتصف بنفس صفاتهم ٠٠ »(١) ٠

ويبدو أن الانتماء الطبقى القروى لعرابى قد صاغ ـ الى جانب الصفات الكازرمية له ـ الشخصية الزعامية له رغم نصيبه الضئيل من التعليم والثقافة ٠٠ ولا شك أن حماسه الوطنى ووعيه بالتفاوت الطبقى وادراكه لمأساة الحكم المطلق وغياب البناء الدستورى هو ما دفع به الى الانتماء الى الحزب الوطنى (جماعة حلوان) الذى تزعمته جماعة البشاوات الوطنيين وعلى رأسهم شريف باشا وسلطان باشا وغيرهما من البشاوات الذين كانوا يطالبون بالدستور والبرلمان والحكومة المسئولة ٠

وأيا كانت الاسباب التى دعت هؤلاء البشاوات الى تكوين الحزب الوطنى والى المطالبة بالحكم الدستورى البرلمانى(٢) ، الا أن الدعوة فى حد ذاتها كانت دعوة ونغمة جديدة فى حينها ، وتكشف عن وعى وطنى متميز ٠ ورغم تصدر الاعيان للحركة الدستورية وتزعمهم للحزب الوطنى ، الا أن قاعدة هذا الحزب قد اتسعت بحيث استوعبت أعدادا كبيرة من الوطنيين الذين ينتمون الى الطبقات الدنيا والشعبية ومن الصفوة العسكرية الوطنية والمستنيرة ومنها أحمد عرابى ٠

---

(١) نقلا عن رفعت السعيد ، الأساس الاجتماعى للثورة العرابية ، ص ١٣٠ ٠

(٢) يذهب رفعت السعيد ـ معتمدا على ما أشاره بلنت ـ الى ان هؤلاء البشاوات لم يكونوا الا طلاب سلطة وحكم وان دعوتهم للمطالبة بالدستور والبرلمان لم تكن دعوة خالصة بل كان دعوة موجهة أو ممهدة لكى يستولوا على الحكم والسلطة ٠ أنظر : رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ٠

(٢)

والى جانب هذا الحزب المدنى الذى انضم اليه عرابى ، نجد أن هنـاك حركة مقابلة داخل صفوف الجيش ، وهى الحركة التى قامت أساسا كرد فعل للتفاوت الطبقى داخل صفوف الجيش لا سيما بين الجنود المصريين من جهـة والجنود الاتراك والشراكسة من جهة أخرى ، وكنتاج للتفكك داخل القيادات العسكرية وفشلها فى حملة الحبشة ، ومن ثم كانت هـذه الحركة أو هـذا التنظيم العسكرى السرى الذى رأسه على الروبى ، فأنضم اليه عرابى لاسيما وأنه ـ أى عرابى ـ كانت له سمعة ومكانة بـين الجنود والضباط كأحـد الوطنيين المتحمسين ، ولقد انضم الى هذا التنظيم « ٠٠ مجموعة من الضباط الذين يلهبون حماسها ٠٠ محمد عبيد ، خضر خضر ، على فهمى ، عبـد العـال حلمى ، ألفى يوسف وغيرهم ٠٠ »(١) ٠

ولا شك أن هذه النخبة العسكرية المستنيرة والتى عكست وعيا متميزا للعسكرى المصرى قـد اضافت الى مظاهر السخط مظهراً أو بعـداً آخر ، هو القدرة التنظيمية على تجميع القوى الوطنية ، لا سيما وأن هذه القوى كانت تعكس كافة الطبقات الاجتماعية ولم تكن قاصرة على طبقة دون غـيرها ، وان كانت الطبقة الدنيا القروية قد لعبت دورا هاما فى هذا التنظيم نظـرا لانتماء غالبية الجنود وكثير من الضباط ومنهم أحمد عرابى الى هذه الطبقة الكادحة المطحونة،التى كانت تشكل غالبية أفراد هذا التنظيم العسكرى(٢) ٠

ومن المؤكد أن البداية الحقيقية للحركة العرابية بشعبيتها وبقـدرتها على التعبير عن الطبقات الدنيا فى ريف مصر وحضره قد انطلقت من هـذا التنظيم الذى انصهرت فيه آمال أمة بكاملها ، وتفاعلت فيه عوامل السخط والكراهية جنبا الى جنب مع مظاهر الحماس والوطنية والرغبة فى الخلاص من أزمة الحكم التركى ٠

وهكذا كان عرابى ذلك الفلاح الوطنى ، ابن القـرية المصرية ، زعيم الثورة ، ممثلا للروح المصرية فى بساطتها وعنفها ومودتها وحماسها وحبهـا

---

(١) رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ٠
(٢) رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ٠

لتراب هذا البلد ، هكذا كان عرابى ذلك الجندى ، البسيط ، القوى ، محـــدود الثقافة ، ممتلىء الحماس ، المفعم بالوطنية · هكـذا كان عرابى بتناقضاته هذه ممثلا لنموذج ثورى انبثق من النخبة العسكرية المستنيرة وأحد الفلاحين الـذين ·· مزقوا ستار الظلام يتعلموا ويصبحوا ضباطا فى الجيش ·· هـو ابن لواحد من هؤلاء الفـلاحين الذين ذاقوا كل ألوان الظلم والحرمان ، والتى مارست عليهم السلطات الحاكمة كل مظاهر القهر والعدوان(١) ·

وهنا يكمن السر فى هذا الحب الجماهيرى وهذه الجاذبية الشعبية التى تمتع بها عرابى ، انتماؤه لريف مصر ولفلاحى مصر وللطبقات المطحونة فى مصر(٢) ، فكان تجسيدا لآمال الأمة ، وصرخة مدوية مزقت حجب الليل ·· لبل السلطة الكئيب فكانت هذه الاستجابة الفورية لكل دعاواه(٣) وهـذا التأييد الحارف بكل عفوية وتلقائية ·

لقد استطاع عرابى بعبقرية ان يجمع بين ثلاث مزايـا : اولا انتماؤه العسكرى وثانيا انتماؤه الطبقى المتواضع ثالثا جاذبيته الجماهيرية كنتاج لموهبته القيادية وكفاءاته الزعامية وحماسه الوطنى المتدفق ·

ولا شك أن الجاذبية الجماهيرية قد تضاعفت فى الوقت الذى بدت فيه كراهية السلطة الحاكمة لعرابى تزداد عنفا وضراوة · فكان عرابى يمثـــل (ظاهرة) ثورية فى حينهـــا ، وهى الظاهرة التى تألقت بفضل الظـــروف السياسية والاجتماعية ونمط الحكم السائد والتناقضات الطبقية الصارخـة عسكريا واجتماعيا · ولا أعتقد أن موهبة عرابى ما كانت لتتألق لولا هـذه الظروف التى جسدت هذه الموهبة وفجرت كوامن الثورة فيها ·

---

(١) انظر فى هذا المعنى : رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٢٤ ·

(٢) انظر دراسة عامه عن علاقة الفلاحين بالثورة العرابية ومساندتهم لعرابى باعتبـاره ممثلا لهم فى : على بركات ، الفلاحون بين الثـورة العرابية وثورة ١٩١٩ ، المجـلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى والعشرون ، ١٩٧٥ صص ٢٠١ ــ ٢٤٨ ·

(٣) من مظاهر هذا التاييد تلك الاستجابة السريعة لنداء عرابى الذى صـدر فى صورة منشور يطلب فيه انابة الأمة له فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد والذى نصه « اعلموا يا معاشر الوطنيين ان أولادكم المنتظمين فى تلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعـالى وعزموا على منع كل ما من شانه الاجحاف بحقوقكم ·· فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم من ضمن هذه النشرة وهى الكتابة المقصود بها ان اكون نائبـا عنكم فى كل ما يتعـلق بأحوال البلاد » (نقلا عن رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٢٥) ·

ولقد اعترف أحمـــد عرابى بفضل الظروف فى خلق زعامته حينما قال لصديقه بلنت « اننى ممثل الجيش الا أن الظروف هى التى دفعت الجيش لأن يثق بى ، لكن الجيش ليس سوى ممثل للشعب وحام له وسيظل كذلك حتى يستغنى الشعب عن هذه الحماية ، ولهذا فاننا الآن نمثل روح الحركة الوطنية التى تحول بين الوطن وبين الحكام الاتراك من أن يمثلوا به ويعيدوه الى عهـد التحكم »(١) ٠

(٣)

وتثير قضية انتماء عرابى الى الصفوة العسكرية Military Elite قضية حزئية هامة تتعلق بنوعية الصفوات المعبرة عن كوامن الشعب ونفسية الأمة وآمالها ، بمعنى أى من صفوات المجتمع أكثر قـــدرة على تجسيد روح الشعب وبلورة أهدافه ومن ثم الدفاع عنها ومحاولة تحقيقها ؟ هل هى الصفوة العسكرية ؟ هل هى الصفوة الاقتصادية (الاعيان) هل هى الصفوة المثقفة ؟ هل هى الصفوة الدينية ؟ أم هى الصفوة السياسية ؟ ٠

ولا شك أنه من العسير أن نجد اجابات على التساؤلات السابقة دون أن نضع فى الاعتبار عـــددا من الملاحظات :

١ ـ ان محاولة تحديد الصفوة المعـــبرة عن الشعب محكوم بمقولتى الزمان والمكان ، بمعنى أن الصفوة التى قد تعبر عن الشعب فى حقبة ما فى مجتمع ما ، قـــد تحل محلها صفوة أخرى فى حقبة أخرى فى نفس المجتمع ٠ كذلك فان الصفوة أو الصفوات التى قد تجسد آمال مجتمع ما قد تعجز نفسها عن تجسيد آمال الشعب فى مجتمع آخر ٠ ولا شك أيضا أن مقولتى الزمان والمكان محكومة أيضا بالاوضاع الحضارية والثقافية للشعوب ٠

٢ ـ والأوضاع الحضارية والثقافيـــة للشعوب لا شك أنها تفـــرز نوعيات خاصة من الصفوات تتسق وطبيعة هذه الاوضاع ، ولعل هذا يفسر لنـــا سيادة الصفوات العسكرية لدى شعوب العالم الثالث ذات المستويات الثقافية والحضارية المتواضعة ومنها المجتمع المصرى ٠

---

(١) انظر صلاح عيسى ، ملامح من الخريطة الفكرية للثورة العرابية ، ص ٤٩ ٠

٣ ـ يرتبط الوضع القيادى للصفوات بطبيعة البناء الطبقى Class Structure للمجتمع من جهة وديناميات السياق السياسى Political Context للمجتمع من جهة أخرى ٠

٤ ـ تؤكد الملاحظتان الثانية والثالثة أن تزعم الصفوة العسكرية للحركة العرابية وثيق الصلة بالوضع الثقافى والحضارى لمصر فضلا عن الوضعية الطبقية والسياسية للمجتمع المصرى آنذاك ٠ كما أنهما تفسران السبب فى ضآلة ـ أو انعدام ـ الدور القيادى للصفوة المثقفة المصرية رغم محاولاتها أن يكون لها مثل هذا الدور ٠

٥ ـ يتوقف الدور الزعامى للصفوة (أيا كان نوعها) على مدى تمثلها لنفسية الشعوب وقدرتها على ترجمة أحلامها والتعبير عن آمالها ، التعبير الصادق الذى يكشف عن قدرات ابداعية خلاقة فى تحقيق الآمال المرجوة للشعوب وفى تحقيق ما يمكن تسميته بالتحديث السياسى والاجتماعى،ورغم أن الصفوة بطبيعتها قلة Minority ، والقلة كما يرى بعض علماء الاجتماع السياسى لا تعبر عن الكل بل تعبر عن مصالح الصفوة أو الطبقة التى تمثلها ، ولما كنا لا ننكر سلامة هذه الرؤية لا سيما اذا ما قدر للصفوة أن ترتبط ارتباطا رسميا بالسلطة والحكم ، الا أنه من المؤكد أن الصفوة ـ أى صفوة ـ سوف تظل دائما المنبع الاساسى لتخلق الزعامات السياسية والفكرية ، لا سيما اذا ما نظرنا الى الصفوة بمنظورها الشمولى ، بمعنى أنها لا تعنى تميزا طبقيا ، بقدر ما تعنى تفردا بسمات تؤهل للقيادة وأحيانا للحكم ٠ ولا شك أن الزعيم أو القائد لابد وأن يتميز ومن الحتمى أن يتفرد ومن المنطقى أن ينتمى الى صفوة والا أضحى شخصا عاديا ، ولكن لا شك أن نجاحه كزعيم يتوقف على مدى نجاحه فى تجاوز مصالح طبقته وارتباطه عضويا بالجماهير ، والا سيفقد مقومات زعامته الشعبية ويصبح ـ ممثلا ـ لجماعته وطبقته وليس زعيما بالمعنى الجماهيرى ٠ ولكن ينبغى أن نؤكد أننا لا ننادى بحكم الصفوة ، لأنه حكم بطبيعته حكم ديكتاتورى غير جماهيرى وانما نؤكد على التعددية فى الحكم مع ايماننا أن الصفوات سوف تظل دائما مصدرا أساسيا للزعامات السياسية بالشروط آنفة الذكر ٠

(٤)

وترتبط ظاهرة التحديث السياسى والاجتماعى كأحد أهداف الزعامة السياسية الحقيقية بمدى توفر ما اسميناه بالايديولوجية أو المنظومةالفكرية

للزعيم أو على أقل تقدير بمدى توفـــر الرؤية الفكرية بمظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لصاحب التجربة الزعامية ، وذلك على اعتبار أن عملية التحديث لا يمكن أن تتحقق بمعزل عن الفكر والا تحولت الى مجموعة من الاجراءات غير الواعية والتخبطات العشوائية العفوية غـــير الناضجة • فلا تحديث بلا رؤية ولا تجديد بلا فـكر •

وعرابى كأحد الزعامات الالهامية الكارزمية لم تكن لديه ـ فيمأتصور ـ رؤية متكاملة أو ايديولوجية محددة المعالم ، متكاملة الابعاد للتحـــديث السياسى أو للتغير الثنائى فى مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بل كان لديه تصور عام تجسده مجموعة من القيم السياسية والاجتماعيـة التى كان يؤمن بها عرابى ، وهى قيم يغلب عليها الحماس الوطنى الذى لم يبلغ الى مرتبة الرؤية المتكاملة أو الايديولوجية ذات الأبعاد المحددة •

ولقد تجسدت مجموعة القيم هذه فى برنامج الوزارة الوطنية برئاســـة البارودى والتى تولى فيها عرابى نظارة (وزارة) الحربية • وهذا البرنامج الذى أشار اليه بلنت يكشف عن تصور (اصلاحى) للوزارة ، قد يكون عرابى مصدره الأساسى ، وقد يكون أحد المشاركين فى وضعه ، وقد حدد بلنت هذا البرنامج كما تحدث عنه عرابى فيما يلى :

ـ الغـــاء نظام السخرة الذى يفرضه الباشاوات الأتراك على الريف المصرى •

ـ القضاء على اقطاع الماء واحتكار الباشاوات والأتراك لمياه الفيضان •

ـ حمـاية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين ينشبون أظافرهم فى أجساد الفلاحين مستعينين بالمحاكم المختلطة •

ـ اصلاح القضاء فهو ملىء بالفساد •

ـ نشر التعليم بالنسبة للرجال والنساء على السواء •

ـ انتخابات حرة لبرلمـان جديد(١) •

---

(١) انظر : رفعت السعيد ، الواقع الطبقى للثورة العرابية ، مجلة الطليعة ، سبتمبر ١٩٧١ ، ص ٤٨ •

ونـــلاحظ أن البرنامج السابق لم يتعـد مجموعة من (الأمانى) أو التمنيات ، وهى أمانى اختلطت فيها الابعاد الاجتماعية بالابعاد السياسية والاقتصادية ، ولكن رغم ذلك فانها تعكس وعيا ـ وان كان محدودا ـ ببعض قضايا الانسان المصرى ٠

ورغم التحفظ السابق الا أن المتتبع لمجموعة الرسائل التى تبودلت بين عرابى وصديقه بلنت يكشف عن أن هناك أمرين كان يشعر عرابى أن شعبه يفتقدهما ، أولهما الحرية(*) وثانيهما العدالة ، ففى رسالة بعث بها الى بلنت فى أول ابريل عام ١٨٨٢ يقول عرابى « ان أى انجليزى حر لا بد له وأن يؤيد هؤلاء الذين يسعون لتحقيق الاستقلال لوطنهم ، ويسعون للاصلاح ولاقامة حكومة عادلة ٠ وان هدفنا الوحيد هو انقاذ وطننا من الذل والعبودية والظلم والجهل وأن نرفع شعبنا الى المستوى الذى يمكنه من مقاومة أيـــة محاولة لاعادته الى ظلمات المـاضى »(١) ٠

(٥)

والقضية السابقة ، تعكس لنا بجلاء قضية العلاقة بين كل من الزعامة الكازرمية والفكر ومحاولات التحـــديث السياسى ، فالبعض قد يرى أن فى السمات الكازرمية الالهامية ما يكفى لنجاح اى حـركة ثورية حتى وان لم يتوفر عنصر الرؤية أو الفكر لدى صاحب هذه السمات وبالتالى فان عمليـــة التحديث السياسى أى تغيير صيغة الحكم السائدة وما يترتب عليهـــا من مشاركة سياسية وتغيـــير نمط السلوك السياسى للافراد ٠٠ الخ تصبح رهينة بكازرمية هذا الزعيم والهاميته ٠

ونحن لاندعى أن عرابياً لم يكن بلا فكر ،ولكنه فكر لم يرتق الى مستوى الرؤية المتكاملة أو النظرية محدده المعالم ٠ ولقد أختلف بشأن الفكر العرابى طائفة المؤرخين الذين تناولوا الشخصية العرابية ، ففى الوقت الذى يرى فيه صلاح عيسى أن عرابيا كانت لديه مجموعة من الرؤى السياسية السليمة ،

---

* لعل فى قول عرابى المأثور لتوفيق عابدين الشهيرة فى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ ما يكشف عن ادراك عرابى لقيمة الحرية حيث قال « لقد خلقنا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم » ٠

(١) انظر : رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ص ٤٨ ـ ٤٩ ٠

وبالذات فكره الديمقراطى الذى كان ـ حسبما يشير عيسى ـ جوهر موقفه(١) يرى آخرون ومنهم الرافعى أن عرابيا لم يكن « ... على حظ كبير من الكفاية السياسية وبعد النظر .. ومن هنا جاء شططه فى كثير من المواطن وعدم تقديره للأمور وملابساتها . وعرابى معذور فى ذلك لأنه لم ينل حظا كبيرا من الثقافة والالمام بشؤون السياسة وأطوارها . فهو لا يعدو أن يكون ضابطا من تحت السلاح ، لم يتخرج فى المدارس الحربية ولا المدنية . ولم يعلم نفسه بنفسه تعليماناضـــجا ، ولم يكن له من العبقرية ما يغنيـــه عن الدرس والاطلاع والتحصيل »(٢) .

ورغم قسوة هذا الحكم وتطرفه والذى جرد أحمـــد عرابى من كل مزية وهو الأمر الذى لا تقره الحقيقة ولا يعكسه الواقع ، ولا يتسق مع قواعد الحكم الموضوعى ، ولا منطق العدل والانصاف ، الا أنه يعكس التباينات التى عادة ما تقوم بين المؤرخين عند تقديرهم للظواهر أو القضايا التى عادة ما يؤرخون لها ، وغير خاف أن للابعاد الايديولوجية دورها غير المذكور عند القيام بعملية التقويم هذه .

وتتأكد تلك التباينات اذا ما تعرضنا لرؤية ثالثة قدمها بلنت عنـــد تقويمه لزعامة عرابى حيث يقول أنه « كان يحيط نفسه برجال الدين لأنه كان مسلما ورعا وكانت الاوقات التى يجب أن يقضيها فى تنظيم وسائل الدفاع يصرفها فى الادعية والصلوات ، ويظهر أنه لم ينقطع عن هـــذه الاعمال الى النهاية ، ومن الصعب أن يعرف الانسان ما كان هياه من التدابير الحربية ... ان عرابى لسوء حظ الحرية لم يكن قويا ، وانما كان يجهل أوروبا جهلا تاما ، ويجهل أيضا الطرق والأساليب السياسية الغربية »(٣) .

ومن الجلى أن بلنت قد تضافر مع الرافعى وقدما صورة قاتمة لأحمـــد عرابى لا سيما فى وصفه اياه بالجهل وعدم الخبرة والدراية وضعف شخصيته وبعده عن الحنكة العسكرية وانصرافه الى ممارسة الطقوس الدينية ، فضلا عن عدم معرفته بالاساليب السياسية الغربية . ولا شك أن وصف بلنت هذا

---

(١) أنظر : صلاح عيسى ، الثورة العرابية ، ص ٤٧٤ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى ، الزعيم أحمد عرابى ، ص ص ٢١٠ ـ ٢١١ .
(٣) أنظر صلاح عيسى ، المرجع السابق ، ص ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥ .

يجرد عرابيا أيضا من سماته الكارزمية وبالتالى يكون قد جرده من أبسط السمات القيادية ، الأمر الذى تنتفى معه شرعية انتمائه الى الزعامات أو القيادات السياسية ٠

ولكن قد يكون عرابى ـ بالفعل ـ ذا حظ متواضع من العلم والثقافة والمعرفة ، وقد يكون ـ أيضا ـ نصيبه من الخبرة أو الدراية السياسية محدوداً بأفاق معينة وهو ما يقلل كثيرا من مقومات زعامته ، ولكن ما نختلف فيه مع بلنت أن عرابيا كان ذا شخصية ضعيفة وهو ما يتناقض مع مواقفه الجريئة ازاء السلطة الحاكمة (موقفه من الخديو توفيق) ومن التفاف الجنود والضباط حوله ومن خلال جاذبيته الجماهيرية وحضوره الخطابى ومقدرته على التأثير فى الآخرين ، وهو ما يجعلنا نؤمن بزعامته الكارزمية وبقيادته الالهامية ٠

(٦)

ولكن من المغالاة والجحود أن نجرد عرابيا كلية من أى تصور للاصلاح(١) رغم اتهام البعض له بالجهل ـ كالرافعى ـ وعدم معرفته بالطرق والاساليب السياسية الغربية كبلنت ، الا انه ظل بحسه الوطنى الثورى وبانتمائه الطبقى والعسكرى ، أحد الصفوات الثورية العسكرية المتميزة ، وان لم يرق الى مستوى الزعامات السياسية المتكاملة ٠

ثم تثار قضية أخرى متعلقة باتهام البعض له بولعه بالسلطة ، وهو اتهام يثير لدينا قضية أخرى هى علاقة الزعامة السياسية بالسلطة ٠ فالزعامة السياسية الحقيقية ـ كما نتصورها ـ تظل دائما خارج السلطة الشرعية الرسمية ، تعمل بحرية وبدون تقيد بقيود السلطة بمعناها الرسمى ، لذلك فاننا عادة ما نميز بين الحاكم بوضعيته السلطوية الرسمية ٠ وبين الزعيم السياسى كرمز للجهاد الوطنى وكتجسيد لآمال أمته ، وتفتقد الزعامة كثيرا من مقوماتها اذا ما بدأت تفكر فى تحقيق مطالب سلطوية رسمية ، لأن الزعامة ـ بطبيعتها ـ سلطة تتجاوز كل المعانى السلطوية التقليدية ، فهى سلطة

---

(١) انظر البرنامج الذى قدمه عرابى بعد هزيمة الثورة للورد دفرين فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٢ ، وهى برنامج يتضمن تسعة عشر عنصرا تكشف عن تصور خاص لكيفية الاصلاح السياسى والاجتماعى ويكشف فى الآن نفسه عن حس خاص تجاه قضيتى العدالة والحرية ٠ (صلاح عيسى ، المرجع السابق ، ص ص ٤٦٧ ـ ٤٧٠) ٠

خارج الشرعية ، وما شرعيتها الوحيدة الا تاييد الجماهير لها ، وان كان هـذا لم يحل دون تكون هناك حالات ـ وهى بطبيعتها حالات فريدة ـ جمع فيهـا بعض الزعماء بين الزعامة السياسية والسلطة الرسمية ٠

وأيا كانت نية عرابى فى الاستيلاء على السلطة ٠ وقد كان بالفعل أحد وزراء وزارة البارودى ـ فانه ما كان ينبغى أن يفكر ـ هو فى حكم الزعيم ـ فى أن تكون له وضعية رسمية فى حكم البلاد ، بل كان عليه أن يظل حاكما (عن بعد)(١) ، حيث يحقق له هذا (البعد) تأثيرا أقوى ، ويكون بمثابة الحارس على حرية الشعب ، المراقب لتصرفات الحكام ، الموجه لسلوكها ، فهو بذلك قوة فوق كل قوة ٠

ولكن يبدو أن الصفوات العسكرية دائما ـ والتى منها عرابى ـ لا سيما فى بعض البلدان المتخلفة ـ كنتيجة لضآلة الخبرة السياسية ، فضـــلا عن القصور النسبى فى نوعية الثقافة وكيفها ، عادة ما تخلط بين الزعامة والحكم ، وتعتقد أن قيادتها لحركة ما (ثورة أو انقلاب ٠٠٠ الخ) يؤهلها لحكم البلاد ، ويكون سندا شرعيا لتولى السلطة ، وهذا ما وقعت فيه مصر بعد ذلك باكثر من سبعين عاما وكأن التاريخ يعيد نفسه ٠

(٧)

وفى نطاق البحث عن ماهية الزعامة العرابية والكشف عن ديناميـاتهـا والتعرف على مواطن قوتها ومظاهر ضعفها وسر عبقريتها ، يقودنا الحديث الى محاولة تحليل موقف عرابى من التيارات السياسية فى عصره لا سـيما وان أساطين هذه الاتجاهات السياسية كانوا ممن ينتمون ـ بحكم الطبقة ـ الى علية القوم ، وان عراديا بحكم ولائه القروى وانتمائه الطبقى كان يقع فى قاع السلم الاجتماعى ، فكيف استطاع عرابى اذن أن يكون له دور وسط هذا التيار

---

(١) لقد نكل عرابى بعد توليته وزارة الحربية بالعديد من خصومه وكمم أفواه معارضيه واغلق بعض الصحف المناهضة له فاستحال الى حاكم أوتوقراطى وهو الذى قام أصلا لمناهضة النزعات الاستبدادية فى الحكم ٠ انظر عاطف أحمـد فؤاد الحـــرية والفكر السياسى المصرى دراسات تحليلية فى علم الاجتماع السياسى (الفصل الاول) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، وانظر أيضا ابراهيم عبده ، الديمقراطية بين شيوخ الحارة ومجالس الطراطير ، سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧١ ٠ وانظر كذلك عبد اللطيف حمزة ، الصحافة المصرية فى مائة عام ٠

السياسى القوى ٠ الذى جمع بين الاتراك والشراكسة الدستوريين كشريف باشا وعثمان كينج وعمر لطفى باشا ، وبين الاقطاعيين المصريين سلطان باشا والشريعى باشا وغيرهم من الاقطاعيين والذى جمع أيضا بين كبار الموظفين كعلى مبارك باشا ، ثم الامام الشيخ محمد عبده والشيخ خليل الهجرسى من قادة التقدم فى الازهر ثم بقايا (مصر الفتاة)(*) وتيار جمال الافغانى ومحمد عبده ٠٠ وسليم النقاش وسعد زغلول وأويب اسحق(١) ؟ ٠

وهنا تكمن احد أسرار عبقرية عرابى ذلك الفلاح القروى صاحب الفكر السياسى والاجتماعى المتواضع ، كيف استطاع وهو بوضعيته هذه أن يكون أحد أقطاب الحزب الوطنى (جماعة حلوان) وأن يفرض تصوراته ـ وهو الفلاح ـ على هذا الجمع المتميز من عليه القـــوم ؟ ، وأن يشترك ـ وبصورة فعلية ـ فى صياغة برنامج الحزب الوطنى(٢) ٠ ورغم وصف البعض لهذا البرنامج بالتخلف(٣) ، الا أنه ـ رغم ذلك ـ يعكس تيارا اصلاحيا معتدلا جمع بين قادة الفكر والاعيان والاتراك وبين التنظيم العسكرى برئاسة أحمد عرابى ، ولكن يبدو أن وقفة ٩ سبتمبر الشهيرة بميدان عابدين قد كشفت عن الروح الثورية لدى عرابى ، والتى أصابت بعض المعتدلين من الحزب الوطنى بالهلع والخوف ، ولا سيما وأن عرابيا كانت لديه أفكاره الخاصة التى كانت تعكس وضعه الطبقى ، وهو الأمر الذى خلق فيما بعد وضعا غير متوازن بين عرابى وغيره من أعضاء الحزب الوطنى من ذوى الاصول الطبقية المتميزة ، الى الدرجة التى ذهب فيها عرابى الى القول بأن الجيش سوف يظل يساند جماعة الاعيان طالما يسيرون فى الطريق الصحيح ٠٠ ولكن ـ حسبما يقول عرابى ـ سيوف الجيش ستظل باستمرار قادرة على ان تقوم اى اعوجاج فى سلوكهم(٤)

اذن لقـد ظلت أحد أسرار مقومات الزعامة العرابية تكمن فى قدرته على

---

* هو حزب انشاه جمال الدين الافغانى او جماعة انشاها الرجل حبـا فى مصر وأملا فى الرقى بها وتحريرها من ظلم الحاكم وجبروته ٠ وهو بطبيعة الحال غير حزب مصر الفتـــاه الذى انشاه الاستاذ احمد حسين اطال الله بقاءه ٠

(١) رفعت السعيد ، المرجع السابق ، ص ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ٠

(٢) يتكون برنامج الحزب الوطنى من ستة مبادىء ٠ انظر تفاصيلها فى عبـد الرحمن الرافعى ، الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ص ١٤٤ وما بعد هذه الصفحة ٠

(٣) رفعت السعيد ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ ٠

(٤) أنظر رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٧٠ ٠

مواجهة الحكام وابراز وضعيته كفلاح مصرى أمام غطرسة الاعيان وصلف الاتراك وهنا يكمن السر فى هذا التأييد الجماهيرى ـ فضلا عن تأييد رفقائه فى الجيش ـ لـه الـذى أضحى بالنسبـة (رمزا) لمناهضة السلطة وجبروت الاتراك وصلف الشراكسة ٠

فلا انكار اذن لزعامة الرجل ، ولكنها زعامة محدودة بظروف عصره ، وهى زعامة تستمد مقوماتها من وضعها كصفوة عسكرية فقط ، وانما من المؤكد أن الانتماء الطبقى لعرابى والخلفية الاجتماعية القروية له وظهوره فى ظـل ظروف أو مواضعات سياسية واجتماعية معينة التى أضافت الى أبعـــاده الذاتية الكارزمية أبعادا أخرى موضوعية ساعدت على صياغة البناء الزعامى للشخصية العرابية ، ومن ثم قدر لأحمد عرابى أن يلعب هذا الدور الخطير فى مسيرة المجتمع المصرى ، ورغم مثالب الرجل من نقص الدراية وضآلة الخبرة ومحدودية ثقافته وولعه بالسلطة وافتقاره الى رؤية او ايديولوجية متكاملة ـ وهو ما يقلل كثيرا من سماته الزعامية ـ الا أنه سيظل أبدا رمزا حيا لثورية الانسان المصرى فى بساطته وعفويته ، ثم أنه سيبقى دائما أحد الصعوبات المصرية المتميزة التى جمعت بين ملامح الالهامية والحس الثورى والحماس الوطنى المصرى الصادق ، والتى استطاعت بذكاء أن تتجاوز حدود انتمائها الصـــفوى العسكرى وتصبح ظاهـــرة سياسية شعبية جمعت بين التميز بصورته الذاتية والجماهيرية والشعبيه ٠

المبحث الثالث

مصطفى كامل : بين العشق الرومانسى لمصر

ومقومات الصفوة السياسية المثقفة

(١)

يمثل مصطفى كامل جيل ما بعـــد الثورة العرابية(*) ، وهو الجيـــل الذى أراد أن يتجاوز كل مظاهر السأم والكآبة والاحباط التى تولدت كنتيجـة لفشل الثورة العرابية وخيبـــة الأمل التى حطمت معنويات الشعب المصرى ، فكان هـذا الجيل بحق صحوة ويقظة نبهت العقول الى حقيقة الوضع الـذى ترددت فيه مصر ، وهو الوضع الذى ساهم فى صياغته المستعمر الانجليزى والحكم الاوتوقراطى المتمثل فى الخديوى وحاشيته ، فضلا عن حالة اللامبالاة والقنوط التى أصابت الشعب المصرى ٠

وهذا الجيل ــ جيل اليقظة والوعى ــ هو ذلك الجيل الذى نال حظـــا وافرا من العلم والثقافة ، وهو الجيل الذى بشر بتخلق الزعامات السياسية العلمانية (غير الدينية وغير العسكرية) المثقفة جنبا الى جنب مع الزعامات الفكرية التى مثلها الشيخ محمد عبـده واحمد لطفى السيد والشيخ رشـيد رضـــا ، ثم بعد ذلك ــ وبفترة غير يسيرة ــ محمد حسين هيكل والشيخ على عبد الرازق والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وطه حسين والعقاد والمازنى وأمين الرافعى وسلامه موسى ٠٠٠ الخ ٠

والملاحظ أن زعامات تلك الحقبة والتى تميزت بحسها الثقافى وبقدرتها على استيعاب خبرات المـاضى ، فضـلا عن حسها الوطنى الثورى ، قـــد استطاعت أن تجمع بمهارة بين القـــدرة على القيادة السياسية الجماهيرية وامكانية طرح رؤية أو ايديولوجية شبه متكاملة تجسد تلك الزعامة أو القيادة وتحدد مسارها ، فكانت بمثابة الفلسفة التى دارت حولهـا تلك الزعامات ،

(*) انظر قصة حياة مصطفى كامل وكفاحه الوطنى فى : عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية ، كتاب الهلال ، نوفمبر ١٩٥٢ ٠ وانظر كذلك : فتحى رضوان ، مصطفى كامل ، سلسلة اقرأ (٣٩٠) ، دار المعارف ، القاهرة ، ديسمبر ١٩٧٤ ٠ وأيضا فتحى رضوان ، مصطفى كامل رائدا وطنيا فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ص ١٣ ــ ٤٦ ٠

وهو أمر يتسق وطبيعة الوضعية الفكرية والثقافية لجيل ما بعد الثورة العرابية ، والذى يعد مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد من أبرز شخصياته.

ولم يكن البعد الثقافى والفكرى هو المظهر الوحيد الذى ميز زعامات ما بعد الثورة العرابية ، اذ أن هناك بعدا آخر كانت له فاعليته ودوره فى تحديد معالم الزعامة السياسية،وأعنى به نشأة الأحزاب السياسية المصرية، فكان لنشأة حزب الأمة وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ثم الحزب الوطنى أثره لا فى صياغة هوية الزعامة السياسية فى مصر فحسب ، وانما أيضا فى طبيعة المسار الذى اتخذه الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الانجليزى وضد أوتوقراطية السلطة الحاكمة .

ومصطفى كامل بحكم تكوينه الفكرى والثقافى(*) كان ينتمى الى الصفوة السياسية المثقفة Intellectual Political Elite ، ولأول مرة فى تاريخ مصر يتزعم الحركة السياسية الوطنية زعيم ينتمى الى الصفوة العلمانية المثقفة ، وهذا ما يميز مصطفى كامل عن الزعامات المصرية السابقة كعمر مكرم باعتباره صفوة دينية مستنيرة ، أو كأحمد عرابى باعتباره أحد الصفوات العسكرية الوطنية المتيقظة .

(٢)

ولقد ساهمت الثقافة القانونية والعلمانية الأوربية (خاصة الثقافة الفرنسية) فضلا عن الثقافة الاسلامية فى صياغة البناء الفكرى لمصطفى كامل وخدمت طرازا عصريا من الزعامات السياسية الثورية التى جمعت بين الحماس الثورى والحس الوطنى الناضج وبين الطرح الفكرى بابعاده السياسية والاجتماعية وهو ما كنا نفتقده فى الزعامات السابقة عليه حيث طغى الحماس الثورى بحيث لم يدع للبعد الفكرى ـ ان وجد ـ فرصة للظهور والتألق .

(*) انظر فى مظاهر الفكر الثقافى لمصطفى كامل : محمد عمارة ، مصطفى كامل والجامعة الاسلامية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ص ص ١٠٥ ـ ١٥٣ . والذى يؤكد فيه الكاتب أن فكر مصطفى كامل كان يدور فى اطار العقيدة الوطنية المصرية والدليل على ذلك تقييمه لتجربة محمد على الاستقلالية ودور مصر التاريخى وعقيدة الوطنية المصرية وموقفه من قضيتى الوطنية والدين ، والوحدة الوطنية وموقفه منها كفكرة ومفهوم ، فضلا عن موقفه من فكرة التعصب القومى ، ثم موقفه من الحضارة الغربية .

فكان مصطفى كامل كصفوة واعدة Promising Elite تعلقت بها آمال الشعب المصرى ، وكان بمثابة الروح التى سرت فى جسد هـذا الشعب المكلول ، فبعثت فيه الأمل بعد أن تحطم بهزيمة العرابيين وفشـل الثورة وتشريـد زعمائها ٠

وتكمن العبقرية الزعامية لدى مصطفى كامل **فيما أتصور من خـلال المظاهر الآتيـة :**

١ ـ ادراكه الواعى لمـأساة الشعب المصرى والتى جسدها المستعمر الانجليزى وأوتوقراطية السلطة الحاكمة ٠

٢ ـ وعيـه المستنير لأسباب فشـل التجارب المصريـة الثورية ، لاسيما التجربة العرابية ، وكانت للقاءاته العديدة بفيلسوف الثورة العرابية وخطيبها الأثير ومحرك وجدان الشعب عبد الله النديم ، الأثر العميق فى فهم أبعاد هذه الثورة وأسرار فشلها ٠

٣ ـ قدرته على تقديم فكر ثورى جديد فى ملامحه ، عميق فى أبعاده ، رومانسى فى طرحه ، يجمع بين الحماس الوطنى من جانب والفكر السياسى محدد الملامح ، متميز الهوية من جانب آخـر ٠

٤ ـ رغم بعض هناته كثقته فى الخديو عباس حلمى الثانى أو اعتماده على فرنسا ودعوته الى الخلافة الاسلامية فى ظل السلطنة العثمانية(*) ، الا أنه ظـل مصدر ثقـة الشعب ، ومصدر توتر وقلق لـكل من الحاكم الشرعى والمستعمر الاجنبى ٠ ويكفينا أن نشير الى دوره العظيم أثر حادثة دنشواى رما ترتب عليها من اقصاء اللورد كرومر ، وهو الاقصاء الذى اعتبر فى حينـه أحد الانتصارات الكبرى للحركة الوطنية(١) ٠

٥ ـ رغم انتماء مصطفى كامل الى الصفوة المصرية المثقفـة الا أن

---

(١) انظر عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ص ١١٢ ٠

(*) فى هذا المعنى يكتب مصطفى كامل الى مدام جولييت آدم « انك تعلمين خطتى مع مع تركيا وما اراه واجبا نحوها ٠٠٠ وقد اعترف كثير من اصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة الوطنية لمصر ان تكون مع تركيا ٠٠٠ فمن الامور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة » نقلا عن : محمد محمود السروجى ، الفكر السياسى لمصطفى كامل ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٥٤ ٠

حركته الوطنية لم تكن حركة وطنية فئوية ، بل كانت حركة ذات أبعـــاد شعبية ، وكيف لا ومصطفى كامل ـ على نحو ما يذهب الخديو عباس حلمى الثانى فى مذكراته ـ كان « ٠٠٠ محيى الوطنية المصرية ، ورسول تلك الفكرة التى كانت قد خفتت فى مهـدها ولكنها ظلت تسعى الى الامام ، وقـد كسب لعقيدته ولحزبه أغلبيـــة الموظفين ، وأعيانا ، ومثقفين ، واجمـــاع الطلبة والعمـــال »(١) ٠

٦ ـ قدرته على المزج بين حبـــه الرومانسى لمصر وانطلاقاته غـــير المحدودة فى الداخل وفى الخارج للدعاية للمسألة المصرية والتنـــديد بالمستعمر الانجلـــيزى ٠

٧ ـ ما تميز به من عفـة وتواضع وبساطة ، فرغم موهبته الفـــذة كخطيب وحضوره المؤثر والتفاف الجماهير حوله كان أميـــل الى البساطة ، عفا ، ظاهرا ، وهو ما جعل الشـــعب يثق به ، لاسـيما وانه رغم ثقافتـه الأوربية (الفرنسية على وجه الخصوص) الا أن « ٠٠ أساس تعليمه لم يكن عصريا مفرطا فى عصريته ، بل لعـــل أفكاره كانت أقرب الى التقليد الشرقى مما يعتقد أكثر الناس ٠٠ وكان قـد جرد وطنيته من كل رداء دينى ، ولكنه ظـــل متدينا ومتعلقا بروح القرآن ٠٠ ومع أنه تربى فى أوربا ، فلقـد كان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة ولكنه لا يعتبرها غاية فى حد ذاتها»(٢) ٠

(٣)

ومن الظواهر التى تستحق التأمل بالنسبة لشخصـية مصطفى كامل انه كان من الزعماء السياسيين المصريين ، بل يكاد يكون أولهم وآخرهم الذين قدموا مايشبه (النظرية) فيمـــا يتعلق بقضايا السـياسة والحـكم ، وهو ما تكشف عنـــه كتاباته ومقالاته العديدة فى جريدة اللواء أو فى غـــيرها من الصحف الأخرى المصرية والأجنبية (الفرنسية على وجه الخصوص)(*) ،

---

(١) نقلا عن عبد الرحمن الرافعى ، نفس المرجع ، ص ١٥٢ ٠

(٢) من مذكرات الخديوى عباس حلمى الثانى ، نقلا عن عبد الرحمن الرافعى ، نفس المرجع ، ص ١٥٦ ٠

(*) انظر فى علاقة مصطفى كامل بفرنسا فى : صلاح العقاد ، مصطفى كامل وفرنسا ، الجمعيـة المصرية للدراســات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ص ٦٦ ـ ٧٧ ٠

فضلا عن كتاباته التى صـــدرت فى صورة كتب مؤلفة ، والتى يذكر منهـــا برنـــارد لويس Lewis كتـــاب الشـمس المشـرقة The Rising Sun والذى قـــدم فيه اليابان كنموذج لدولة شرقية استطاعت أن تجـدد نفسها بنفســـها(١) ٠

فمصطفى كامل اذن كان يعـد من المنظرين السياسيين بالرؤية المصرية للخالصة(**)وهو الأمر الذى يضيف الى مزاياه مزية أخرى هى أن زعامتـــه لم تكن زعامة حوفاء أمتزجت فيها سماته الذاتية وموهبته القيادية الخاصة بطاقمه الفكرى وبمنظومة نظرية تعكس فلسفته فى السياسة والحكم ٠

ولقد تبنت رؤيته المصرية فى معالجته لقضايا السياسة والحكم ، وهى رؤية تعكس حبه وولعه بمصر ، فى كل ما طرحه من أفكار وآمن به من مبادىء ودور كلها فى فلك (حب مصر) وعشقها الى الدرجة التى كان يرى فيها أن كل من يعيش فى مصر وهو غير مصرى يعتبر من الدخلاء وهو ماحدث مثلا بالنسبة للسوريين الذين كانوا يعيشون فى مصر ، وهى الفكرة التى آمن بها من قبل عبد الله النـــديم(٢) ٠

ولكن قد يفهم من هذا العشق لمصر والتدله بها أنه كان يعنى تعصبا ، اذ أنه فى الوقت الذى كان ينظر فيـــه الى غير المصريين هـذه النظرة ، كان يعيب على العرابيين أنهم خلقوا مظهرا من مظاهر العداء العنصرى Ethnic hostility عندما ميزوا بـــين المصريين وغيرهم من الأتراك والشراكسة ، حيث كان ينبغى ـ حسبما يرى مصطفى كامل ـ أن ينظر اليهم باعتبارهم أحد العناصر المشكلة للأمة المصرية(٣) ٠

---

(١) Lewis, Bernard, The Middle East and West, Weidenfeld and Nicolson, London, 1963, P. 55.

(**) رغم هذه الرؤية المصرية الا أن فكره السياسى والحزبى قد تأثر الى حد كبير بالقوى السياسية الفرنسية التى كان يتعامل معها وهى القوى الحزبية وهو الأمر الذى يؤكد دور الفكر السياسى الحزبى الفرنسيه فى صياغة الفكر السياسى والحزبى لمصطفى كامل رغم نجاحه فى تقديم فكر سياسى مصرى الروح فى نهايه الامر ٠ انظر يونان لبيب رزق ، مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل)، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٨٠ ٠

(٢) Lewis, Bernard, Ibid, P. 18.

(٣) Ibid, P. 81.

فلم تكن نظرته اذن نظرة يغلب عليها التعصب ، بل لقد كان من أكثر الصفوات استنكارا للفكر المتعصب ، ومن أكثرهم استهجانا لأى مظهر من مظاهر التعصب بين المسلمين والمسيحيين فى مصر ، اذ كانت مصر (المتحدة) أحد أحلامه الكبرى والتى ظهرت بصورة جلية برنامجه الثورى(١) ، رغم دعوته الى الجامعة الاسلامية التى قد يفهم منها تعصبا دينيا معينا ، الا أن الأمر لم يكن كذلك ، اذ انه كان يتصور أنه أحد صور (الخلاص) من (أزمة) الاستعمار الأجنبى ، فى الوقت الذى أدان فيه فكرة القومية العربية كأحد المؤامرات البريطانية فى حينها حسبما يشير برنارد لويس(٢) .

(٤)

ولقد تطور الفكر الزعامى لمصطفى كامل وتجسد بصورة محددة فى البرنامج الذى تأسس وفقا له الحزب الوطنى(٣) ، وهو البرنامج الذى تمت صياغته فى عشرة مبادىء « ... لم تكن أكثر من آراء التى طالما أبداها مصطفى كامل قبل تأسيس الحزب »(٤) .

ولقد كان تاسيس الحزب الوطنى بصورته المتكاملة أحد القفزات الهامة التى وثبت بالحركة الوطنية خطوات كانت لها انعكاساتها الايجابية على المسار الذى اتخذه الكفاح الوطنى فيما بعد ، كما أنه يعد فى الآن نفسه أحد مظاهر الوعى السياسى الناضج للزعيم مصطفى كامل الذى أدرك أهمية التنظيم السياسى (الذى تمثل فى الحزب) فى استمرارية الكفاح الوطنى وفى اضافة أبعاد جديدة لمضمون هذا الكفاح ، تحقق له قدرا من الثبات والاصرار والقوة .

ولعل حديثنا عن الحزب الوطنى يقودنا بالضرورة الى الحديث عن

---

(١) El Good, P. G., Egypt, Arrow Smith, Bristol, 1935, P. 104.

(٢) Op. Cit., P. 85.

(٣) انظر تفاصيل هذا البرنامج فى : يونان لبيب رزق ، الاحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، مايو ١٩٧٧ . ويقول مصطفى كامل فى حديث مع الصحفى الامريكى جولدنيك فى مارس ١٨٩٧ شارحا برنامجه ودعوته فى الجلاء والاستقلال « اننا نبنى نجاحنا فى عملنا على أمرين : الأول خارجى ، وهو انتهاز الحوادث الدولية والثانى داخلى وهو نشر العلوم والمعارف بين اخواننا المصريين والتشهير باخطاء الاحتلال الانجليزى » : انظر محمد محمود السروجى ، مرجع سابق ، ص ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٤) يونان لبيب رزق ، نفس المرجع ، ص ٢٤ .

علاقة مصطفى كامل بالخديو عباس حلمى الثانى · فمهما قيل عن ثقةمصطفى كامل فى الخديو عباس وصداقته له ، فانه من المؤكد ـ حسبما يشير الشيخ رشيد رضا عن توفيق بك العظم ، صديق مصطفى كامل ومحمد فريد ـ ان مصطفى كامل كان يتخذ من الخديو وسيلة « ·· لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال ، فان ظفرت البلاد بجلاء الجيش الانكليزى عنها فان الحزب الوطنى يؤسس لها حكومة لا يكون للخديو ولا لأمثاله أدنى حظ فيها · ويؤكد هذا الاتجاه محادثة دارت بين مصطفى كامل وبلنت فى ديسمبر ١٩٠٦ ، نـدد فيها مصطفى بالخديو وبالفرع الذى ينتمى اليه من الأسرة الحاكمة ، قائلا انهم جميعا لا يساوون شيئا ويجب ابعادهم عن وراثة العرش»(١) ·

فواضح اذن من الحزب الوطنى كتجسيد للحركة الوطنية كان يهدف ـ رغم ما قد يبدو للبعض أنه عكس ذلك ـ الى انشاء حكومة وطنية خالصة بعيدة كل البعد عن نفوذ الخديوية وسيطرتها الى درجة التفكير فى اقصاء الخديو والقضاء على أسطورة وراثة العرش كما تحدث بذلك مصطفى كامل الى بلنت ·

ولعل هذا يتسق مع ما ذهب اليه جمال المسدى من أن «·· قيادة الحركة الوطنية حينئذ متمثلة فى مصطفى كامل كانت حريصة على ألا تقع تحت سيطرة عباس حلمى ، وأن يكون التعاون بينهما فى حدود الهدف المشترك وهو مقاومة الاحتلال ، لتحتفظ باستقلال الحركة الوطنية عن الخديو»(٢) ·

وتتكشف هذه الروح التجديدية فى نظام الحكم فيما بلورته المبادىء العشر لبرنامج الحزب الوطنى(٣) من اتجاهات واضحة نحو الحكم

---

(١) محمد جمال الدين المسدى ، الاحتلال والحركة الوطنية فى مصر فى أوائل القرن العشرين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى والعشرون ، ١٩٧٥ ، ص ص ٨٨ ـ ٨٩ ·

(٢) محمد جمال الدين المسدى ، نفس المرجع ،ص ٨٤ ·

(٣) يذهب على فهمى كامل فى ترجمته عن حياة شقيقه بان الصحافة الاوربية والفرنسية بصورة خاصة هى أول من تحدثت عن حزب وطنى فى مصر وعن مصطفى كامل باعتباره زعيما لهذا الحزب وكان ذلك فى أعقاب خطبة ألقاها مصطفى فى باريس بمناسبة عيد جلوس السلطان فى ٣١ مارس ١٨٩٥ شن فيها هجمة عنيفة على الاحتلال البريطانى · انظر : يونان لبيب رزق ، مصطفى كامل وتاسيس الحزب الوطنى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ص ٨٠ ·

الديمقراطى ، حيث يشير المبدأ الثانى الى « ايجاد حكومة دستورية فى البلاد حيث تكون السيادة للأمة وتكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تمـــام السلطة »(١) ٠

ورغم أن الدعوة الى الدستور والى الحكم النيابى جاء فى المرتبة الثانية من برنامج الحزب الوطنى بعكس برنامج حزب الأمة الذى وضـع الدستور ومبدأ التعليم والمشاركة مع الحكومة فى وضع القوانين فى المرتبة الأولى(٢) ، الا أنه يكشف عن وعى سياسى بقيمة الدستور والحياة النيابية وأهميتهـا للمجتمع ، كما أنه يكشف فى الآن نفسه عن نيـة صادقة لتحقيق قـدر كبير من التحديث السياسى Political Modernization ، وهى التى كانت تمثل ـ الى جانب قضية الاستقلال ـ أحد محاور التفكير السياسى لمصطفى كامل٠

ومن المؤكد ان قضيتى الاستقلال والدستور قد شغلت الحزب الوطنى طوال سنى كفاحه حتى بعد رحيل زعيمه مصطفى كامل وانتخاب محمد فريـد رفيقه فى النضال الوطنى رئيسا للحزب من بعده(٣) ٠

(٥)

اذن لقد مثل مصطفى كامل احد القوى السياسية المستنيرة الواعيـــة واحد الصفوات المثقفة التى قدر لها أن تتزعم الحركة الوطنية مدعمة بملكات انهامية وقـدرات كازرمية صيغت من خلالها ـ الى جانب الرؤية الفكرية ـ الشخصية الزعامية له ٠

ومن المؤكد أن ظروف المجتمع المصرى سياسيا واجتماعيا ونمط الحكم السائد ـ فضلا عن المستعمر الانجليزى ـ قد جسدت هـــذه الزعامة المثقفة وعملت على تأنقها ٠ ولاشك أيضا أن الانتماء الطبقى الاجتماعى لمصطفى كامل

---

(١) يونان لبيب رزق ، المرجع السابق ، ص ٩٥ ٠

(٢) انظر : يونان لبيب رزق ، نفس المرجع ، ١٩٦ ٠

(٣) انظر دور محمد فريد فى الحركة الوطنية فى : أحمد شوقى ، محمد فريد ، دار اللواء للنشر ، القاهرة ٠ وانظر مذكرات محمد فريد فى المنفى التى صدرت حديثا تحت عنوان مذكرات بعد الهجرة (١٩٠٤ ـ ١٩١٩) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القـــاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ ٠ وانظر كذلك ، زكريا سليمان بيومى،الحزب الوطنى ١٩١٢ ـ ١٩٥٣ (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ ٠

باعتباره أحـــد أعضاء الطبقة الوسطى المصرية(*) وتمثله لنفسية الشعب ، ومن ثم التفاف الشعب حوله ، فضـــلا عن حداثة ســـنه مقارنة بعبقريته الزعامية ، قـد أضاف الكثير الى ابعاد شخصيته الزعامية النادرة ٠

ومن الظواهر اللافتة بالنسبة للشخصية الزعامية لمصطفى كامل ، أنه رغم تمثيله للصفوة المثقفة فى المجتمع المصرى ، الا أنه استطاع ـ بقـدراته الخاصة ـ أن يتجاوز حـدود طبقته المثقفة وأن يتفاعل مع جمـاهير الشعب المصرى ، أو أن يجعل الجماهير تتفاعل معه بكافة طبقاتها الاجتماعية وبمختلف انتماءاتها الثقافية ، ومن ثم أضحى أحد رموز الكفاح الوطنى على مدى تاريخ المجتمع المصرى ٠

وقد تكون من الظواهر المؤكدة للشخصية الزعامية لمصطفى كامل هو انه لم يتطلع أبدا الى السلطة بمعناها الرسمى أو الشرعى ، ولم تكن له أهواء خاصة فى السيطرة أو الحكم ، لأنه كان يملك من السلطة والسيطرة والقـوة ما فاق كل وضع سلطوى رسمى ، وتلك هى الزعامة الحقيقية فى يقينى ٠

وعزوف الزعامات المصرية منـــذ الحكم المملوكى يـكاد أن يكون أمرا بديهيا ، فلقـد ألف المصريون من قبل استبداد المماليك بالولاة وعزلهم فكان زعيمهم (شيخ البلد) يتوجه اليه فى مقره بالقلعة ويطوى البساط من تحتـه ايذانا بعزله وما على السلطان الا أن يعين بديله ٠٠ فلم يكن عزوف الزعامة المصرية عن تولى الحكم بنفسها بعـد أن اضطلعت دون غيرها بعبء الكفاح القومى ايمانا منها بعدم القدرة عليه أو أنها ليست كفئا له ، بل لأنها كانت ترى أن حقها هو دون الولاية وان عداه الى الاختيار ، وظل هذا الرأى قابعـا فى أذهان المصريين حتى الثورة العرابية(١) حين فكر عرابى فى خلع الخديوى توفيق ، وحين قدر له بعد ذلك أن يكون وزيرا للحربية فى وزارة البارودى ٠

أما مصطفى كامل فلقد كان زاهدا فى السلطة ، واعيا بأن دوره ما كان ينبغى أن يكون دور الحاكم ، فما هكذا تخـدم الأمة ، وما كان هـذا هـدف

---

(١) انظـر : حسين فوزى النجـــار ، أحمد لطفى السيد : أستاذ الجيل ، المؤسسـة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ص ١١ ـ ١٢ ٠

(*) نشأ مصطفى كامل فى حى الخليفة بالقلعة فى أسرة متوسطة ٠ وحى الخليفة من الاحياء الشعبية المصرية العريقة ٠

الزعامة ، ولعل ما وقع فيه عرابى قد كرره سعد زغلول ـ على اختلاف ظروف كل منهما ـ حين قبل تشكيل أول وزارة ـ وزارة الشعب ـ جاءت بنـــاء على الانتخابات التى أجريت وفقا لدستور عام ١٩٢٣ ، وهذا ما سوف يكشف عنه المبحث الثالث من هـــذا الفصل عند تناول الشخصية الزعامية لسعد زغـــلول ٠

وخلاصة القول : ان مصطفى كامل ، كما يرى فتحى رضوان كان رجل خيال وفكر ، بقدر ما كان رجل تنفيذ وعمل ٠٠ فمصطفى كامل كان قائـــدا موهوبا للشخصيات الكبيرة ولجموع الجماهير ٠٠ ولم يكن ممكنا أن توجـــد حركة وطنية مصرية فى أعقاب كارثة الاحتلال البريطانى بغير شخصية يجمع هذه الصفات التى قل أن تتلاقى وتجتمع فى انسان واحد ، ولأن مصطفى كامل كان هذا الزعيم ، فقد استطاع أن يقوم بمهمة الرائد(١) ٠

وهكذا كانت زعامة مصطفى كامل تلك الزعامة التى سمت بالوطنيـــة المصرية ، ووصلت بها الى قمـــة الفكر الشامل فأضحت اتجاها سياســـيا ومنهاجا خلقيا وبرنامجا للاصلاح والتقدم وأسلوبا أو صيغة للكفاح ودعوة متجددة دائمـــا للبناء والتجديد ، فكانت دعوته الدائمة فى أن يوقظ فى مصر الهرمـــة ، مصر الفتـــاة(٢) ٠

(٦)

ثم تبقى قضية أخرى ، قـــد نكون لمحنا لها عند الحديث عن برنامج الحزب الوطنى أو عند الاشارة الى فكر مصطفى كامل ، وأعنى بهـــا الرؤية الاجتماعية لديه ٠ والواقع أننا نتفق كثيرا مع صلاح عيسى فى اشارته الى أن « الظاهـــرة الواضحة فى حلقات الثـــورة الوطنية المصرية ذات الأفـــق البرجوازى(*) ، هو ذلك الانفصال النسبى فى رؤيتها بين قضية التحـــرر السياسى وقضية الاصلاح الاجتماعى»(٣) ٠

---

(١) انظر فتحى رضوان ، مصطفى كامل رائدا وطنيا ، الجمعية المصرية للدراســـات التاريخية ٠

(٢) انظر فتحى رضوان ، نفس المرجع ، ص ١٧ ، ص ٤٦ ٠

(*) رغم عدم بورجوازية مصطفى كامل وسعد زغلول ومن قبلهما أحمد عرابى بالتصور الطبقى الكلاسيكى ٠

للدراسات التاريخيه (ندوة مصطفى كامل) القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٥٤ ٠

(٣) صلاح عيسى، مصطفى كامل وقضايا الاصـــلاح الاجتماعى ، الجمعيـــة المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٥٤ ٠

ولعل هـــذا يعنى افتقـــار الثورة الوطنية المصرية ومن ثم الزعامات السياسية المصرية الى الرؤية الشمولية رغم ما قد يتصوره البعض من أن وروود ذكر بعض القضايا الاجتماعية فى برامج بعض الأحـــزاب السياسية المصرية(١) ما يكفى للتدليل على توفر هـذه الرؤية الشمولية لـــدى بعض القيادات السياسية المصرية • ولكن من المؤكد أن الأمر ليس مجرد ذكر القضية الاجتماعية أو عدم ذكرها بقدر ما هو مرتبط بالنظرية أو الفكر الذى يحكم النظرة الى هذه النوعية من القضايا •

ومصطفى كامل رغم حسـه الاجتماعى ووصفه الدائم لمصر فى كتاباته ورسائله المختلفة جولييت آدم بأنهـــا «•• وطن شقى وتعس الى آخـر درجات التعاســـة»(٢) وفهمـه لطبيعة الظروف الاجتماعية والاقتصاديـة ووضعية البناء الاجتماعى المصرى ، الا أنه لم يكن صاحب فـــكر اجتماعى متكامل ، ورؤية اجتماعية محددة الملامح •

ومع ذلك فان احساسه بالتمايزات الاجتماعية والطبقية كان على قدر كبير من الوعى والنضج فالأغنياء على حد قوله « •• ليسوا فى سعة من العيش وراحة البال الا بالفقراء ، فصاحب المزرعة لا يأخذ من أرضه ذهبا الا بفـأس الفقير وقوةساعده ، ومالنا نذهب بعيدا وهذه السراى العالية البنيان المشيدة الأركان لم تقم الا بالفقراء ، هم قـــوة الأمة ، وساعدها العـــامل ، يحملون الأغنياء على أكتافهم فان أخلوا بهم يوما اسقطوهم الى أسفل سافلين»(٣) •

ولا شك أن الرؤية السابقـــة تكشف عن نزعة راديكالية فى الفـــكر الاجتماعى على نحو ما بذهب صلاح عيسى ، الا أنها لم تترجم الى فعـــل راديكالى ذى تاثير أو فاعلية على نحو ما فعل النديم فى تحريضه للفـلاح أن يشق بطن ظالمه بالفأس(٤) • ويظل مصطفى كامل على حسه الاجتماعى هذا ، معلنا عنه فى كل أحاديثه وخطبه المختلفة ، فيؤكد فى أحد خطبه على أن هناك

---

(١) انظر برامج الاحزاب السياسية فى يونان لبيب رزق ، الاحزاب المصرية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاهرام ، القاهرة ١٩٧٦ •
(٢) صلاح عيسى ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ •
(٣) نقلا عن صلاح عيسى ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ •
(٤) انظر : صلاح عيسى ، نفس المرجع ، ص ١٦٨ •

« أفرادا فقراء من آخر طبقات الهيئة الاجتماعية قاموا فى بلادهم بأكبر الأعمال وأشرفهـــا»(١) ٠

ولكن ـ وللأسف ـ لم تقترن هذه الرؤية ببرنامج اجتماعى محـــدد اجرائيا ، ولكن كان برنامجا نظـــريا ذا أمانى انسانية « أن يكون المصرى انسانا بأسمى معانى الكلمة » ٠٠ « ٠٠ فأسمى عمل نقوم به هو انهـــاض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، فهو ممثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم ، فليحيى عصر ينطق فيـــه التاريخ بان الفلاح ألقى أثقال القـرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل أبناء وطنـــه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته»(٢) ٠

ثم تتوالى الأمانى الاجتماعيـة لدى مصطفى كامل ، من دعوته لاعادة النظر فى تعدد الزوجات وقبول مبدأ الوحدانية فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وحرصه على تـأهيل المرأة بشرط الالتزام بالحجاب والحذر من العادات الأوربية وتأكيده على ضرورة تبعية المرأة للرجل ٠٠٠ الخ ٠

ويبدو أن أمانيه الاجتماعية كانت نتاجا لفكرة الشرقى الاسلامى وتمثله الجيد وفهمه لطبيعة الحضارة الاوربية بمحاسنها ومساوئها ، ولكن هـــذه الأمانى لم ترق الى مستوى الرؤية المتكاملة ذات البرنامج المحـدد ، وقـــد يرجع ذلك الى طغيان القضية المصـــيرية الاولى وهى قضية الاستقلال على ما عداها من قضايا أخرى ، ولكن القدر لم يمهل الزعيم الشباب لكى يكشف لنـــا عن رؤيته الاجتماعية بصورة أجرائية متكاملة ، ويكون قد قـدر لنا أن نتعـــرف على نموذج للزعامة السياسية المصرية تكاملت فيهـــا الرؤيتان السياسية والاجتماعية ٠

---

(٢) انظر : صلاح عيسى ، نفس المرجع ، ص ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ٠
(١) انظر : صلاح عيسى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ٠

المبحث الرابع

سعد زغلول

موهبة جسدتها ظروف المجتمع

(١)

ما اختلف مؤرخو الفكر السياسى المصرى ، وراصدو الحركة الوطنية المصرية فى أمر قدر اختلافهم على تقويم الدور الزعامى لعلمين من أعلام الكفاح الوطنى المصرى، وهما أحمد عرابى وسعد زغلول ٠

وسعد زغلول هو أحد أساطين الحركة الوطنية المصرية وأحد الزعامات السياسية التى تجاوز تأثيرها جيلها والأجيال التى تلته ، وهو ذلك الشيخ الهرم الذى وصفه أعداؤه الانجليز بالصلابة والعناد ، والذى وصفه مؤيدوه ـ وهم فى الواقع غالبية الشعب المصرى ـ بأنه نبى الوطنية ، والذى اتهمه معارضوه بالدكتاتورية والتفريط فى قضية الاستقلال ، والذى وصفته أحد وثائق ثورة يوليو ١٩٥٢ بأنه من راكبى موجة ثورة عام ١٩١٩ ، والذى اتهمه ـ أخيرا ـ أحد المغالين بأنه كان من أكثر شخصيات المجتمع المصرى تعاونا مع الانجليز ٠

وغير خاف علينا أن لهذه الاختلافات القائمة بين المؤرخين فيما يتعلق بتقويم الشخصية الزعامية لسعد زغلول ودوره فى مسيرة الكفاح الوطنى ، أبعادها الحزبية والايديولوجية ، فضلا عن الأهواء الشخصية والسلطوية فى محاولة طمس المقومات الزعامية والملامح القيادية من شخصية سعد ، وهو أمر لم تسلم منه غالبية الزعامات السياسية المصرية ، لا سيما اذا ما كانت هذه الزعامات قد نالت من رضى الشعب وتأييده ما قد يصور ـ لبعض السلطات الحاكمة ـ أنه قد ينال من هيبتها ويهز سلطانها ٠

والواقع أننا لسنا بمعرض التأريخ للزعيم سعد زغلول من حيث نشأته وانتمائه الاجتماعى والطبقى ومصادر ثقافته وطبيعة الشخصيات التى تأثر بها ، لأن ما كتب عنه من مؤلفات ودراسات من الوفرة(١) بحيث تشكل

---

(١) انظر فى السيرة الذاتية لسعد زغلول : عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ، سيرة وتحية ، دار الشروق ٠ ومصطفى أمين ، من واحد لعشرة ، المكتب المصرى الحديث ، ثم عبد الرحمن الرافعى ، ثورة الشعب : ثورة علم ١٩١٩ (ثلاثة أجزاء) ٠ وايضا حسين مؤنس ، دراسات فى ثورة ١٩١٩ ، سلسلة اقرأ (٤١٨) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ ٠ =

أمامنا نحن الباحثين فى علم الاجتماع السياسى عقبة تتعلق بمنهجية التناول وبأسلوب العرض والتحليل ، كما أنها تثير أمامنا تساؤلا هاما هو أين نحن وسعد ؟ بمعنى كيف نبدأ ؟ ومن أين نبدأ ؟ وذحن أمام هـــذه الشخصية الفريدة ؟ هل نتحدث عن سعد صاحب الموهبة الكازرمية الساحرة ؟ وهـــل نشير اليه باعتباره قوة لأحـد صفوات المجتمع المثقفة ؟ هل نتناوله باعتباره موهبة جسدتها ظروف موضوعية ؟ وهـــل نحلل أبعاد شخصيته باعتباره زعامة خلقتها ثـــورة ؟ ٠

ثم كيف لنا أن ندنو من هذه الزعامة العبقرية ، وللعبقرى ــ على نحو ما يذهب محمد السوادى ــ نظرة شمول تتخطى الجزئيات وسرا سلحته به العناية لأمر تعنيه من حيث يدريه أو لا يدريه ، نظرة شمول يخترق بهـا الحجب ٠٠ وسرا يرى على أضوائه الكاشفة ما لا يراه المتخصص بأجهـزته الدقيقة ، أو ببحوثه العميقة ٠٠ سرا يخرج بالعبقرى عن كل قاعدة علميـــة أرسنها الملاحظة وأيدتها التجربة »(١) ٠

ورغم هذا الغموض الذى يحيطه السوادى بالعبقرية ، والتى ينظـــر اليها باعتبارها أمرا لا تعليل له حيث لا نوافق على ذلك ايمـــانا منا بأنه لا عبقرية بلا تفسير ولا زعامة بلا تعليل ، فرغم هذا سوف نتناول سعـدا ، تلك العبقرية الزعامية الفذة ، ذاهبين مع السوادى الى أن سعدا قـــد« ولد عظيما وصنع من نفسه وصنعت منه الظروف عظيما »(٢) ٠ ولعل تصريح السوادى بأن لظروف قد لعبت دورا فى صياغة الشخصية الزعامية لسـعد ، ما يتناقض مع ما أشار اليه قبلا من أن العبقرية لا تفسير لها ٠

= وكذلك راجع فى سيرة الزعيم سعد زغلول ودوره القيادى فى : مصطفى النحاس جبـــر ، مذكرات سعد زغلول ، روزاليوسف ، يونيو ١٩٧٣ وكذلك يونان لبيب رزق فى دراستين : الاولى عن الاحزاب المصرية قبل الثورة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ١٩٧٥٠ والثانى محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية (ثلاثة أجزاء) ، دار المعارف ١٩٧٧٠ وكذلك العدد رقم (٣) من الطليعة ، مارس ١٩٦٩ ، وهو عدد خاص عن ثورة ١٩١٩ ٠

وأخيرا عبده حسن الزيات ، سعد زغلول من أقضيته ، مطبعة الرسالة ، القـاهرة ، ١٩٤٢ ٠

(١) محمد السوادى ، لكيلا ننسى : أقطاب مصر بين ثورتين ، كتاب اليوم ، نوفمبر ١٩٧٦ ، ص ١١ ٠

(٢) محمد السوادى ، نفس المرجع ، ص ١٣ ٠

(٢)

وتتجسد عظمة المولد فى مواهبه وقدراته وملكاته ، وهى سمات ما كان لها أن تظهر أو تتألق لولا تلك الظروف التى أحاطت به وبمجتمه ، وهـذا هو سر عبقرية سـعد التى لا يمكن فهمها الا بتفسيرها فى ضوء السـياق الاجتماعى والسياسى للمجتمع ، وقوة ظهرت بشائرها كقوة عنيدة صلبة منذ أن أيـد العرابيين ، ومنذ أن وقف فى وجه دانلوب ـ وهو فى موقع الوزير ـ بصلابة وقوة بناصر الحق ويزود عن المبادىء بغير خوف أو تردد(١) ٠

ويبدو أن نشأته كفلاح وتعليمه الأزهرى والعلمانى القانونى ووعيه بمتغيرات عصره واستيعابه الناضج لتـاريخ مجتمعه وتأثـره بالافغانى وتلمذته على يـد الشيخ محمد عبـده ، قد أضافت الى أبعاد شخصية عمقـا آخر كشف عن (مصرية) عنيدة وروح ثورية واعية ٠

ومن المؤكد أن زعامة سعد قد تأخر تألقها أعواما عديدة ، الا أن روح الزعامة كانت كامنة فيه ، والتى كانت تظهر بين حـين وآخر فى عديد من المواقف ، لاسيما فى مواقفه من السلطة الحاكمة وسلطة الاحتلال الانجليزى الحاكم الفعلى للمجتمع المصرى ، ولعل انتخابه كوكيل للجمعية التشريعية ثم توكيل الشعب له للمطالبة بالاستقلال والتفاف الشعب حوله وانفجار الثورة عام ١٩١٩ من دلائل الزعامة الكامنة التى كشفت عن ذاتها بصورة جليـة فى قيادته للشعب وفى موقفـه الصلب من مفاوضات الاستقلال ، وفى اكتساحه وحزبه ـ حزب الوفد ـ للانتخابات ثم تشكيله لأول وزارة وفقا للدستور عام ١٩٢٣ ، رغم تحفظنا على هذا الموقف(٢) ٠

فمن الجحود اذن أن ننكر على الرجل موهبته(٣) ومن الغفلة أيضا أن

---

(١) رغم ما يذهب اليه البعض من ان سعدا قبل اشتغاله بالحركة الوطنية « كـان صديقا للاحتلال صادق النية ، مخلص الراى وعاون الانجليز فى خطتهم وهو فى ذلك يسـلك السبيل الذى سلكه من قبله محمد عبده » (انظر : عبد الخالق محمد لاشين ، سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ ، مكتبة التاريخ العربى الحديث ، دار المعارف ، سـنة النشر غير مذكورة ، ص ٥٨ ٠

(٢) انظر دراسـة عن حكومة سعد زغلول فى : عاطف احمد فؤاد ، الحـرية والفـكر السياسى المصرى ، ١٩٨٠ ٠

(٣) يذهب محمد كامل سليم فى وصف سعد زغلول الى انه « عظيم الهامة يعلو راسه صلع ، جرىء القلب ، لم يطرقه يأس ولا هلع ، رهيب الطلعة ، طويل القامة ، تشعر بجانبـه =

يتوه دور الشعب فى تألق هذه الموهبة . ومن غير العلمى الا نذكر أن لظروف المجتمع وطبيعة نمط الحكم السائد الذى مال كثيرا نحو الاوتوقراطية ، فضلا عن وطأة الاحتلال الانجليزى ، بصماتها فى صياغة الشخصية الزعامية لسعد زغلول ، وهو ما يؤكد ما ذهب اليـــه السير رايت ميلز Mills من أن الصفوة أو صفوة القوة ـ اذا ما نظرنا الى سعد باعتباره من الصفوات ـ ومنها الزعامة السياسية لا يمكن فهمها كموهبة خاصة الا فى ضوء طبيعـة البناء الاجتماعى بمتغيراته المختلفة .

واذا كنا قد أكدنا قبلا أنه لا زعامة سياسية حقيقية بلا فكر أو رؤية نظرية ، فمن المؤكد أن سعدا لم يكن زعيما بلا رؤية ، ولكنه على نحو ما يذهب طارق البشرى « .. لم يكن مفكرا صاحب نظرية ولا داعيـــة سياسيا .. ولكنه كان رجل دولة عملى المنزع يهتم بالقضايا التنفيذية ويعبر عن نفسه من خلال المواقف التى تحيط به ويستجيب فى هذه المواقف للسياق العـــام للأحداث والظروف»(١) .

(٣)

فحقيقى أنه لم يكن مفكرا بالمعنى الكلاسيكى أو صـاحب نظـــرية أو أيديولوجية متكاملة الملامح ، الا أن هذا لا ينفى عنـــه انه صاحب (رؤية) وان لم نصل الى مرتبة الفكر أو النظرية ، وهذا ما تكشف عنه مقتطفات من مذكراته وبعض أحاديثه ، وهى المذكرات والأحاديث التى تخالفـه الرأى فى بعضها الا أنها على أية حال تقدم الرؤية السعدية كما هى .. ففى عام١٩٠٨ كتب سعد زغلول محللا البناء الطبقى للمجتمع المصرى ، فقسم الريفيين الى طبقتين اجتماعيتين أطلق عليهما تعبيرا جامعا : هو الزارعون وقال عن الفئـة أو الطبقة الأولى من الفلاحين من غير الأثرياء أنها « أبعد الناس عن الاشتغال

كانك قزم أو طفل ، فى صورته رنة عجيبة ، وفى منطقه قوة ساحقة ، وفى فمه فصاحة دافقـة ، وفى ذهنه سرعة نادرة ، فيشغلك كل ذلك عن نفسك ، وعن التفكير الحر المستقل . وتشعر كذلك كانك مقيد أمامه بقيود متينة أدق من الخيط ، من غير ضيق أو ضغط » (انظر : محمد كـامل سليم ، ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها ، كتاب اليوم ، مؤسسة أخبار اليوم ، سنة النشر غير مذكورة ، ص ١١) .

(١) طارق البشرى ، سعد زغلول وفكره السياسى ، الطليعة ، السنة الخامسة ، مارس ١٩٦٩ ، ص ٣٨ .

بالسياسة » وحدد السبب فى ذلك بقوله « لا تثور لهم ثائـــرة الا اذا مست الجهة الضعيفة فيهم ٠٠ وهى الجهة الاعتقادية ـ يقصد بذلك الدين ـ فهم منصرفون عن كل عمل عام ، الا اذا وسوس وسواس فى صـــدورهم بالدين وأحـكامه »(١) ٠

ويحلل سعد طبقـــة « الصناع والفعلة » فى المدينـــة ، فـــيرى أنهم « ٠٠ لا يهتمون الا باعمالهم وقبض أجورها ولا يتحركون لعمل عـام الا اذا حركتهم عوامل الدين » ، ثم يشير الى كل من طبقـــة كبار الملاك فى الريف وطبقة كبار التجار بالمدينة ويصمهما بالتخلف عن الوعى القومى والعمل وفق مصالحهم الخاصة « فذوو الوجاهة والنفوذ » بين الفلاحين يشتغلون بالأمور العامة بقدر ما يكسبون بسبب الاشتغال بها من السلطة والنفوذ فى العـامة فاذا آنسوا من الاشتغال بها ضررا بما يبتغون من سلطة وجاه انصرفوا عنها وتبرأوا منهـــا »(٢) ٠

(٤)

وعن رؤيته للجماهير ودورها الوطنى يقول سعد « انى أحب أن يكون للشعب صوت من نفسه ، يعبر عن احساسه الخاص ٠٠ وأن يكون هـــذا الاحساس قائما بالشعب لأنه يدرك منفعته ، لا لأنه يقلد الغير »(٣) ٠

ثم تصوره عن قيام تنظيم سياسى يقول « وعندى أن أحسن ما ترشد اليه هذه الأمة فى الظروف الحاضرة وغيرها أن تقوم فيها طائفة يكون من همها نشر الحقائق بينها ودعوة الناس الى الايمان بها» ٠ وتكون مهمته أن يحمل الناس على « ٠٠ محبة المجـــد الصادق الذى يناله الانسان بجـــده وكده لا باستنسابه لزيد أو عمرو » أما مهمته الثانية فهى أن « ٠٠ يقف بالمرصاد لكل مخالف لمصلحة الأمة وأن يكون انتقادها مبنيا على الحق والصدق»(٣)٠

وماذا عن الديمقراطية النيابية فى تصور سعد ، فالديمقراطية عنـــده تصبح زائفة ما دامت السلطة بيـــد الرجعية ، وما دامت الجماهير ليست من الوعى والتنظيم بحيث تستطيع أن تحمى الديمقراطية البرلمانية ، ويرى سعد

---

(١) مصطفى النحاس جبر ، مذكرات سعد زغلول : دراسة ، ص ص ١١ ـ ١٢ ٠
(٢) مصطفى النحاس جبر ، نفس المرجع ، ص ١٤ ٠
(٣) مصطفى النحاس جبر ، نفس المرجع ، ص ص ٢١ ـ ٢٢ ٠

أنه اذا ما توصلت أمة هذه أفرادها ـ ويقصد هنا عدم الاستعداد والوعى ـ « ٠٠ الى أن تنال الحكومة النيابية وهى على هـذا الحال من الضعف وقلة الكفاءات لا يلبث القوى حتى يتغلب فيها ولا يجد أمامه من القوى ـ يعنى الجماهير المنظمة ـ ما يردعه ويحمى من شره »(١) ٠

وبطول الحديث عن رؤى سعد ووجهات نظره التى تكشف عن ملامح عامة تميز فكره ، ولكنها ملامح لم تشكل حقيقة نظرية عامة يمكن أن تنسب الى سعد ، وهو الأمر الذى نجد عكسه تماما لدى أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل صاحب نظرية (الحريين) التى استقت أصولها من الليبرالية الغربية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع،ولكن لطفى السيد ـ رغم زعامته الفكرية ـ لم يستطع أن يكون زعيما سياسيا جماهيريا لافتقاره لأهم مقومات الزعامة السياسية الجماهيرية ، وهى ملكة القيادة ومزية الحضور الجماهيرى وموهبة التاثير فى الآخرين ٠٠ الخ ، وهى الامور التى توفرت ـ بصورة لافتة ـ لدى سعد ٠ ملا يمكن أن تخلق السمات الكازرمية ـ وحدها ـ زعيما سياسيا متكاملا . ولا يمكن أن تكون الزعامة الفكرية وحدها كافية لخلق زعيم سياسى ٠

وبهذه الملكات وبتلك القدرات الخاصة ، وبهذه الرؤى الفكرية المتميزة، أضحى سعد من أكفأ الصفوات ، وأجدرها تمثيلا لزعامة الأمة ، واقد رأى أمين الرافعى فى ذلك « أن سعدا هو أقرب الناس الى الشعب وهو أكثر الزعماء الموجودين كفاية وقدرة على الاضطلاع بأعباء رئاسة الوفد »(٢) ٠

وتتضح قيمة الرأى الذى أبداه الرافعى فى سعد ، اذا ما عرفنا أن الأول (الرافعى) لم يكن مجاملا ، ولا كان من أصحاب الهوى السياسى ، بل كان من أكثر الكتاب الصحفيين والمفكرين موضوعية وعقلانية ٠ والدليل على ذلك أنه فى الوقت الذى رشح فيه سعدا لزعامة الأمة لما وجده فيه من قدرات وكفاءات خاصة وقف له ولحزبه بالمرصاد عندما حاد سعد وحزبه الحاكم عن

---

(١) مصطفى النحاس جبر ، نفس المرجع ، ص ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠

(٢) انظر : صبرى ابو المجد ، امين الرافعى ، مناضل مصرى من اجل الدستور وحرية الرأى ، كتاب الجمهورية (العدد ٣٣) ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٩٣ ٠

مبادىء الديمقراطية وعندما وقفوا من المعارضة موقفا غير شريف»(١) ٠

(٥)

ولا ينبغى ونحن فى معرض الحديث عن أسرار عبقرية سعد ونبوغ زعامته التى جسدتها ثورة عام ١٩١٩(٢) أن نتناسى الدور العظيم الذى لعبته الجماهير فى بلورة الشخصية الزعامية لسعد والاستجابة التلقائية والفورية للشعب ازاء اعتقال سعد ورفاقه(٣) فلولا هذا الشعب ولولا هذه الثورة (وهى ثورة شعبية من أسفل بعكس الثورات الفوقية التى يقوم بها العسكريون عادة) ما تجسدت زعامة هذا الرجل ولظلت ملكاته وقدراته حبيسة ذاته ، كامنة فيه ، فهل نستطيع أن نقول ان عبقرية هذا الرجل قد تجسدت من خلال عبقرية هذا الشعب ؟ ٠

ويبدو أن سعداً بحسه الوطنى وبانتمائه القروى للرعاع على نحو ما كان يزهو دائما وكراهية السلطة الشرعية والسلطة الفعلية (الانجليز) له قد استطاع ان يضيف الى سماته الكارزمية ما أهله لأن يكون زعيما للأمة ردحا طويلا من الزمن وأضحى رمزا للوطنية ونموذجا للزعامة المصرية الأصلية ٠

واذا ما نظرنا الى ثورة عام ١٩١٩ باعتبارها حركة اجتماعية ثورية يتوقع بعدها ـ حسبما بشير كليمنت مور **Moore** ـ نوعا من التحديث

---

(١) انظر موقف سعد من المعارضة فى : عاطف أحمد فؤاد ، وزارة سعد زغلول الاولى والفكر السياسى المصرى ، ص ص ١١٥ ـ ١٢٠ ٠ وانظر محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية (الجزء الاول) ص ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ٠ وكذلك عبد الرحمن الرافعى ، فى اعقاب الثورة المصرية ، ص ١٢٧ ٠

(٢) انظر يوميات ثورة ١٩١٩ ، مجلة الطليعة (العدد ٣) مارس ١٩٦٩ ، ص ص ٦٧ ـ ٧١ ٠

وانظر قصة الثورة وأحداثها فى عبد الرحمن الرافعى ، ثورة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ ، كتاب الشعب ، الجزء الاول ٠ وانظر كذلك عبد العظيم رمضان ، تطور الحركة الوطنية ١٩١٩ ـ ١٩٣٦ ، ص ص ١٣٠ ـ ١٨٧ ٠ وانظر أيضا محمد كامل سليم ، ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها ، كتاب اليوم ٠

(٣) انظر مظاهر هذه الاستجابة الفورية من الشعب فى : على محمد محمد بركات ، الثلاثون بين الثورة العرابية ، وثورة ١٩١٩ . المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى والعشرون ١٩٧٥ ، ص ص ٢٢٦ ـ ١٣٦ ٠

السياسى Political Modernization لا سيما فى تغيير نمط الحكم من نمط تسلطى استبدادى الى آخر ديمقراطى(١) • فنلاحظ أن نتائج ثورة ١٩١٩ لم تقتصر فقط على كونها مفجرة لكوامن العبقرية فى كيان مصر(٢) ، أو أنها حسدت زعامة سعد ، أو فجـــرت الصراع بين مصر وشـــعبها وبين المستعمر الانجليزى ، وظهور الشعب كقوة مؤثرة فى الحركة الوطنية ••• الى آخر هذه النتائج ، وانما من المؤكد أن نتائج هذه الثورة قد كشفت عن مظهر هام مـــن مظاهر التحديث السياسى وهو التغيير الذى أصاب نظام الحكم السائد مـــن نظام أوتوقراطى الى آخر ديموقراطى نيابى ، وهو النظام الذى تجســـد فى دستور عام ١٩٢٣(٣) ، والذى مهد ـ رغم تحفظات البعض عليـــه ـ لزوال الحكم المطلق وأفول نجمـــه ، ومن ثم كانت الانتخابات وكانت أول وزارة شعبية برئاسة سعد زغلول ، وهى احدى مظاهر التحديث السياسى التى ترتبت على ثورة عام ١٩١٩ ، ومن ثم تصدق فرضية كليمنت مور Moore التى أشرنا اليها ، حيث كان عام ١٩٢٤ قمة الممارسة الديمقراطية فى مصر ، سواء فيما أسفرت عنه الانتخابات أو فى طريقة اختيار سعد زغلول لوزارته ، أو فى دلالة تعيين خمس أعضاء مجلس الشيوخ وكبار موظفى الدولة كحق من حقوق رئيس الوزراء أو فى المناقشات الساخنة التى دارت فى مجلس النواب حول السودان وسردار الجيش وبعض الشئون الخارجية • ولقد تمثلت ذروة الممارسة الديموقراطية فى ذلك العام فى تعديل قانون الانتخاب بحيث أصبح الانتخاب مباشرا بعد أن كان على درجتين(٤) ، وهذه كلها بلا شك مظـاهر للتحديث السياسى ، يرجع الفضل فيه الى ثورة ١٩١٩ وما تولد عنها مـــن وعى سياسى ، تمثل أول ما تمثل فى دستور عام ١٩٢٣ الذى يعتبر جزءا من النضال الديمقراطى المصرى ، ومظهرا من مظاهر الصراع الليبرالى بين الحركة

---

(١) Moore, Clement, Authoritorian Politics In Unco-porated Socitey, P. 193.

(٢) حسين مؤنس ، دراسات فى ثورة ١٩١٩ ، ص ٥٢ •

(٣) انظر وثائق دستور ١٩٢٣ فى : الطليعة ، العدد السابع •

(٤) انظر حسن يوسف ، الممارسة الديمقراطية فى مصر (١٩٢٤ ـ ١٩٥٢) فى : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الديمقراطية فى مصر : ربع قرن بعد ثورة ٢٣ يوليـــو (تاليف مجموعة من الباحثين) ، يوليو ١٩٧٧ ، ص ١٣ •

وانظر كذلك : صلاح زكى ، الفكر الديمقراطى والحياة النيابية فى مصر ، مركز النيـل للاعلام ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ص ٢١٦ ـ ٢٦١ •

الوطنية بقيادة الوفد من جهة ، وأحزاب الأقلية والسراى من جهة أخرى منذ ميلاده حتى قيام ثورة ١٩٥٢(١) ٠

(٦)

ومن المؤكد ـ فى تصورنا ـ أنه ما كان ينبغى على سعد أن يقبل تشكيل الوزارة بحيث يظل زعيما سياسيا أو رئيسا للبرلمان وهو أقرب الى المنصب الشعبى منه الى السلطة الرسمية ، ولكن يبدو أن الظروف أرادت لسعد أن يكون دائما زعيما خارج دائرة السلطة الرسمية ، فقدم استقالته بعد مضى حوالى عشر أشهر منذ توليه الوزارة على أثر مقتل سردار الجيش الانجليزى السير لى ستاك(٢) ٠

والواقع أن مسألة تولى سعد الوزارة قد شغلت الرأى العام آنذاك وانقسمت الآراء حولها « ٠٠٠ ففريق يفضل أن يبقى سعد باشا نائبا فى مجلس النواب وبعيدا عن الوزارة ، وفريق يرى أنه يجب على سعد باشا أن يحمل عبء الوزارة وألا يدع هذه الفرصة السانحة لخدمة بلاده »(٣) ٠

ويذهب محمد سعيد (باشا) مؤيدا تولى سعد الوزارة على أساس أن « ٠٠٠ تبوله ضرورى لمصلحة القضية المصرية ، وهو كذلك ضرورى لمصلحة البلاد من كل الوجوه الاخرى ، اذ أن كفاءته ، وصفاته ، والثقة التى وضعتها الأمة فيه ، تجعله الوحيد الذى يستطيع مباشرة تنفيذ النظام الجديد وانشاء تقاليده الصالحة ، ثم أن وجوده فى رياسة الوزارة ينشر فى البلاد جو اطمئنان ترتاح له النفوس ، ومن شأن هذا الاطمئنان أن يعود على البلاد بالخير والبشر»(٤) ٠

ويؤيد محمد توفيق نسيم (باشا) تولى سعد الوزارة فيقول « وان

---

(١) انظر صلاح زكى ، نفس المرجع ، ص ٢٢٨ ٠

(٢) انظر تحليلا للاشهر العشرة التى ترأس فيها سعد الوزارة فى : عاطف احمد فؤاد ، وزارة سعد زغلول الأولى والفكر السياسى المصرى ، مجلة السياسة الدولية ، ص ص ١٠٤ ـ ١٢٤ ٠

(٣) محمد ابراهيم الجزيرى ، آثار الزعيم سعد زغلول : عهد وزارة الشعب ، الجزء الأول ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

(٤) محمد ابراهيم الجزيرى ، نفس المرجع ، ص ٢٩ ٠

سعد باشا الذى خدم أمته بجهده ، ووقف مواقفه المعروفة وهو خلو من كل قوة وسلطان غير قوة الحق وسلطان الأمة ، لأقوى على تلك الخدمة وأشد ثباتا فى مواقفه عندما يجمع بين قوة الحق وقوة الحكم ، ولأقدر على تصريف الأمور فى مناهج الصواب وتمشيتها فى سبيل الرشاد · ولو جد الأمر شدت الأمة أزره ، وكان هو مرجعها كلما عز الرأى · كلنا يعرف أن سعد باشا ليس بالرجل الذى تغره المناصب ، ويستفزه فضل يناله منها ، أو حول يختص به فيها ، وليس هو الذى تخيفه المخاوف فيتهيبها ، فقد كان فى جميع أعماله على بينة من أمره ، ويقين من ربه ··· **فاذا قبل الحكم مع الزعامة** وكان حقا عليه قبوله **لارتباطهما** ، دائما يضحى بشىء كثير من راحته وصحته ويحمل من المسئولية أضعاف ما حمل»(١) ·

اذا كنا نحترم رأى توفيق نسيم فيما يتعلق بتصوره عن ضرورة تولى سعد الوزارة ، فما لا يمكن أن نوافقه عليه هو قوله بأن الحكم والزعامة مرتبطان ، فما كان الحكام دائما بزعماء ، ولا الزعماء من الحتمى أن يكونوا حكاما ، وان جمع بعضهم أحيانا بين الحكم والزعامة ، الا أنهم لم يصيبوا فى هذا نجاحات تذكر ، لذلك فنحن نختلف أيضا مع الجزيرى الذى كان يؤيد تولى سعد الوزارة مشبها اياه بالغازى « ··· مصطفى كمال وفنزيلوس وموسولينى ، وكل الزعماء الذين قادوا النهضات : فان هؤلاء الزعماء لم يحجموا عن تقلد الحكم فى الوقت المناسب ، ولم ير واحد منهم أن قيادة النهضة مانعة من ذلك ، بل رأوا بالعكس أن تقلدهم الحكم استمرار للواجب الذى أخذوه على أنفسهم ووكلت اليهم أممهم أن يقوموا به لخدمتها»(٢) ·

ونحن لا نوافق الجزيرى فى نظرته الى موسولينى أو غيره باعتبارهم من الزعماء السياسيين ، بل هم ـ فيما نتصور ـ أقرب الى المهيجين الجماهيريين منهم الى الزعماء السياسيين · فاننا نربأ بسعد أن يشبه بهم أو بأحدهم ، لا سيما موسولينى ذلك الديكتاتور الذى كان ينعى دائما على الديمقراطية أنها قد قادت العالم الى الدمار والى اشعال الحروب ·

ولكن هل استطاع سعد (الحاكم) خلال الأشهر العشر التى تولى فيها

---

(١) محمد ابراهيم الجزيرى ، نفس المرجع ، ص ٣١ ·
(٢) محمد ابراهيم الجزيرى ، نفس المرجع ، ص ٢٩ ·

الوزارة أن يقدم جديدا لأمته ، غير تفشى المحسوبية والتنكيل بالمعارضة(١) ، فما كنا نود أن يكون سعد حاكما ـ وهو لحسن الحظ لم يستمر الا أشهرا عشرة ـ بل كنا نود ـ وهذا ما تحقق ـ أن يظل دائما حاكما فوق كل الحكام ، وذا سلطة تتجاوز كل السلطات وأن يكون رقيبا على تعسف السلطة الحاكمة، رعيما للأمة ، قائدا لمسيرتها ، وهذا ما تحقق بالفعل حتى بعد رحيل الرجل ، وهذا سر آخر من أسرار عبقريته ٠

(٧)

وهكذا كانت زعامة سعد ، ذلك الشيخ الهرم ، الذى استطاع بحكمة أن يقود الأمة فى حقبة من أخطر حقبها وأكثرها اثارة ، ولا شك أن لزعامته مقومات يمكن ايجازها فيما يلى :

١ ـ الموهبة الخاصة والقدرة المتميزة على التأثير فى الآخرين وهى من أولى السمات المميزة للقيادة الناجحة والزعامة السياسية القادرة ٠

٢ ـ التفاف الجماهير حوله والتأييد الشعبى الذى يندر أن نجد مثيله لدى تاريخ أمة من الامم ٠ ولا شك أن هـذا التأييد قد أضاف الى أبعـاد الشخصيه الزعامية لسعد بعدا جديدا ، زادها قوة على قوة ٠

٣ ـ التجربة السياسية والحزبية والتمثل الجيد لظروف المجتمع المصرى والرؤية الواعية لتاريخ هذا المجتمع ٠

٤ ـ رغم انتمائه الى الصفوة السياسية المثقفـة الا أنه استطاع أن يتجاوز حدود هذه الصفوة وأن يكون زعيما للرعاع على نحو ما شبه سعـد نفسه ، ولا شك أن انتماءه الطبقى للقرية المصرية ، وقربه من نفسية الانسان المصرى ومهمه لعبقرية هذا الانسان وديناميات شخصيته ما ساعده كثيرا أن يتجاوز بزعامته حدود صفوته المثقفة ٠

٥ ـ لعبت ظروف الحكم الاوتوقراطى وأزمة الاحتـلال الانجليزى على تفجير كوامن العبقرية الزعامية لسـعد ، وصلابته وعنـاده والتى ظهـرت ارهاصاتها فى الفترة التى تولى فيها وزارة المعارف ، وهى الفترة التى شاهدت

---

(١) انظر : عاطف أحمد فؤاد ، وزارة سعد زغلول الاولى والفكر السياسى المصرى ، ص ص ١١٥ ـ ١٢٠ ٠

صراعه مع دانلوب ممثل الاحتلال الانجليزى فى وزارة المعارف والتى كشفت عن عناد الفلاح المصرى وصلابته وأصالته ٠

٦ ـ لم تكن زعامة سعد من الزعامات الجوفاء ، أو ذات الخواء الفكرى ، بل كانت زعامة تجمع بين السمات الكارزمية والرؤية الفكرية وان لم تصل الى مستوى النظرية أو الايديولوجية المتكاملة ٠

٧ ـ استطاع سعد من خلال قيادته للأمة وزعامته لها أن يحدث ما يمكن تسميته بالتحديث السياسى والذى تمثل فى دستور عام ١٩٢٣ كأول بشير الحكم الليبرالى وما ترتب على هذا الدستور من نتائج كان لهـا تأثيرها على المسـيرة السياسية للمجتمع المصرى ٠

٨ ـ رغم استئثار سـعد بالرأى فى كثير من الأمور وضيقه أحيـانا بالمعارضة الا أنه استطاع أن يكسب احترام مؤيديه ومعارضيه معـا وهـو ما تبـدى فيما رواه كل من عبـد الرحمن الرافعى ، وأمين الرافعى ، ومحمـد حسـين هيـكل ٠